وَنـراهُ قَريبًـا



اسم الكتاب: ونراه قريبًا

التأليف: محبوبة محمد سلامة

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 232 صفحة

عدد الملازم: 14.5 ملزمة

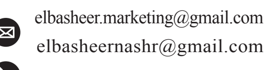
مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

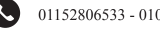
رقم الإيداع: 2018 / 2796

الترقيم الدولي: 4 - 679 - 278 - 977 - 978





elbasheer.marketing@gmail.com



elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714



وَنـراهُ قَريبًا

الكاتبة

محبوبة محمد سلامة



الإهـــداء...

وكيف أهدي ما لستُ أملكه..

فالكلم والفتح والمعنى من الله!

محبوبة محمد سلامة

«أمّا قبلُ»

«آهٍ لو تُوقِظَنِي كلّ صباحٍ عيْنان مِثل تَينِك العينيْن»..

هكذا حدّث نفسَه وهو يَتَلكَّأ على صفحةِ وجْهها، يحفظُ تفاصيلَه داخلَ صدرِه، حاول مرارًا أنْ يغُضَّ نظَرَه عنها لكنّ قلبَه لا يغُضّ، فلمّا أبصَرتْه؛ خَجِلَت، فقَضَت بحيائِها على البقيّةِ الباقية مِن اتّزانٍ لديْه.

بحرجٍ شعرَ والده؛ فلَكَزَه وهو يشيرُ إلى التّلفاز قائلًا ومُتَمنّيًا أنْ يَستَفيق ولده:

– بدأ مِن عام ألفٍ وتسعمائة وثمانين، ولا زال لم يفسّر القرءان كلّه!

أجابه رجلٌ خمسينيٌّ يجلسُ أمامَه:

– نعم.. نعم.. خمس سنوات مرّت كالحُلم، ولا زال «الشّعرواي» في العشرِ أجزاءِ الأولى.

تنحنَحَ الرّجلُ الأوّل، وظهَرَ على وجهِه الأبيضِ علاماتُ الجدّية التي تجلّت في تجعّد جبينه، وتشابُك أصابعِ يدِه، وحِدّة صوتِه الذي بدا– دونَ قصْد– حانقًا بعضَ الشيء مِن افْتِتان ابنِه بالفتاةِ التي لَمْ يرَها إلّا الآن، تحدّث بعدَ صمتٍ قصيرٍ جدًّا:

- ما رأيُك يا أبا «نُور».. نقرأ فاتِحة «إسماعيل» على ابْنَتكم بإذنِ الله؟

صمتَتْ «نُور»، وصمَتَ والدُها وهو ينظرُ إليها مُسْتفهِماً وطالبًا رأيَها، علا صوتُ أحدِهم مُسْتئذنًا الحديث؛ فأُذِنَ له.

- يا عَمِّ، قبْل الفَاتِحة عندي أمرٌ أحدّثُكم فيه.

انتبَه الجَمعُ إليه وهو يُضيف:

- أعِدُك يا عَمّ أمامَ اللّه أنّ أصونَ ابْنَتكم وأكرمَها، لكِنْ وجَبَ لها أنْ تعلَم أنّ لي بالفعلِ زوجةً أولى.

انتفضَ الجمعُ كلّه على إثْرِ جُملتِه، وبقيَ هو وحدَه ساكنًا!

سألتْ «نُور» بصوتٍ خفيضٍ قد هدّته المفاجأة:

- مُتَزوّج!

فأجابَها بصوْتٍ أكثرَ انْخفاضًا:

- لَم أعرفْ قبلَكِ مِن النّساء أحدًا.

هتَفَ والدُ «نُور» مُستنكِرًا بصديقِه:

- ما هَذا يا أبا «إسماعيل»؟! أهكَذا تعامِلُ صديقَك؟!

- يا رجل، صدّقني.. فأنا لا أعلَمُ عنْ أمرِ الزّوجةِ الأولى شيئًا، أراك يا «إسماعيل» جُنِنت!

وجّه ولدُه حديثَه إلى «نُور» وهو يقول:

- أعرفُ أنّ الزّواج حياةٌ وموْت، وأنا أريدُ الحياةَ مع اثْنتيْن، ولقاءَ ربّي باثنَتيْن، الأولى تأخذُ جزءًا مِن قلبي وعقْلي، والثانيةُ تُملِّك على كلّ ما بَقى.

هَتفَ والدُها مُعلِنًا الرّفضَ، وآمرًا ابنتَه على القيامِ والرّحيلِ للدّاخل، انتقلَتْ أنظارُ الجَمعِ كلّه إلى «نُور» التي ظلّت بمكانِها صامتةً، ونظراتُها وحدها تقفُ على وجهِ «إسماعيل»، ثمّ ضاقّت عيناها بتفكيرٍ أجمعَتْ فيه أنّ وراءه سرًّا، ولنْ يُعجزَها أبدًا كشفُه، فهمسَتْ بعدَ دقيقة.. «موافِقَة»!

***

وبعدَ أيامٍ...

- لا أدْري كيفَ ارتضَتْ بِكَ خاطِبًا بعْدما سمِعَت منْكَ أمرَ الزّوجةِ الأولى؟!

هكذا هتَفَ «صلاح» وقدْ علا صوتُ ضَحكِه، وتحرّكت قدَمُه ضاحِكةً هي الأخرى، امتعضَ «إسماعيل» مِن صَديقِه، وقدْ غلبَهُ الحَرَج؛ فتحرّكت يدُه لِتلعَبَ في ذلك النّموذجِ الصّغير لفَراشَةٍ بُرتقاليّة يَحتفظُ بها منذُ صغره وهو يُتمتِمُ خَجلًا:

- لنَتحَدّث في المهمّ يا شَباب.

- «صلاح» على حقّ، لماذا وافَقَتْ؟!

مُتدخّلًا كانتْ تلك كلمات «خليفَة» ذلكَ الصّديق القَديم قِدَمَ شَراكةِ والدِه لوالدِ «إسماعيل»؛ زادَ شعورُ الأخيرِ بالحرَجِ، ولا زالَ الأوّل يُضيف:

– ألا تَرى أنّكَ تُبالغُ في أمرِ الزّوجةِ الأولى؟

أراكَ أعْطيتَ الأمرَ أكبرَ مِن حقّهِ!

حاولَ «صلاح» التدخّلَ ليُخفّف مِن وطأةِ حَديثِ «خليفَة»؛ فقال مازِحًا:

– تقصدُ.. ألم تخشَ الرّفضَ يا صَديقِي وأنتَ بالفِعلِ تحملُ لها مكانةً بقَلبِك منذُ الصّغر؟

زفَرَ «إسماعيل» بقوةٍ، ثمّ تحدّث:

– لا أعلمُ سببَ مُوافقَتِها، لكنّي فقَط أردْتُها أنْ تعلَم أنّ وقتي ليسَ كلّهُ لها، طاقَتي وجهْدِي وقلْبي.. كلّ ذلك تشاركُها فيه أخْرى.

هتفَ «خليفَة»:

– لا زِلتَ تُبالغ!

هُنالِك قالَ «إسماعيل» بحزْمٍ:

– لِنتحَدّث في الأمورِ الأهمّ الآنَ مِن فضْلِكُم.

بعدَ صمْتٍ لفّ المجلِس، تكلّم «صلاح»:

– حسنًا، اتّفقْنا أنّ شرِكَتَنا الصّغيرة ستُسمَّى (الأمل للمُقاولات) وأنّني سأكونُ مسئولًا عن صَفقاتِ البناءِ الدّاخلية.

أكمَلَ «خليفَة»:

– وأنا سأكونُ مسئولًا عنْ صَفقاتِ البِناءِ في القُرى المجاوِرَة، ماذا عنْكَ يا «إسماعيل»؟

فأجابَ وقدِ ارْتسمَتْ على وجْههِ أماراتُ السّعادة:

– أمّا أنا فسأكونُ مسئولًا عن قسمٍ مُختلفٍ من شَرِكتِنا، والذي سيتواجدُ بكلّ القرى التي سنمُرّ بِها.. حتى يعلَمَ الجميعُ أنّنا في خدْمتهم دائمًا.. وهو قِسمٌ لحلّ الأزَمات.

سألَ «خليفَة» مُستنكِرًا:

– أزمات! مع شَركتِنا؟

ترَكَ «إسماعيل» السؤالَ معلّقًا دونَ إجابةٍ، وهو يُذيِّل بتوقيعِه العقدَ الذي بينَه وبينَ صاحبيْهِ مُضيفًا بجانِبِ اسمِه تاريخَ اليوم.. ٢٥ نوفمبر ١٩٨٥، وعيناه تبرقان بأملٍ قَريب.

***

الطائرة، عام ١٩٩٥

«كُنْ ذا أثرٍ إنْ شئتَ أنْ لا تَموت»..

كانتْ تلكَ هي الجُملة التي قالها أحدُ الجالسينَ بقلبي مرّةً، بلْ هي أوّلُ مرّةٍ يُقال فيها أيّ شيء، أثرُ ذلكَ الصوت في أرْكاني عَجيب! فما كادَتِ الجُملة تنْتهي حتّى تطايرتْ وتقسّمَتْ وتبعْثَرت؛ فحطّتِ الأحرفُ على الأرْكان، وتعانقَتْ معَ الوسائدِ والقُضبان، تلاحَمَتْ بي وتلاحمْتُ بها! فتأفّفتُ منها، وتعفّفتْ هي أمامي غيرَ قاصدَةٍ غضَبي وإحْزاني، لكنّ هذا هو قدرُ الله فيها؛ فالأحاديثُ الأولى داخلَ القلوبِ لها روْنقٌ وذكْرى تُسطّر على الضّلوعِ وتُحفَظُ بغبارٍ مِن حَنين، حتى إذا ما اشتدّ شوقي إلى الماضي؛ وجدتُه محْفوظًا داخلي غيرَ ملوّثٍ بعبثِ النّسيان ومرارَةِ الفقْد. هكذا أرهفتُ السّمعَ لذلك الهمْسِ البكْرِ بداخِلي، فكِلانا بِكْر! أتلهّفُ للمْسِ السّماءِ للمرّة الأولى! حدَّثَني مَن سبَقَني إليها أنّها جَميلة، نَقيّة وكريمة؛ فاشْتَقتُ إلى ما لا أعْلمُ وآنسْتُ فيه الحَياة!

كنْتُ أنصِتُ للعدِّ التّنازلي للعامِ الجديدِ عبْرَ الأسْلاك.. حبالُ الوصْلِ بيْني وبينَ التّراب ومَن عليْه، غريبٌ أنا على الأرْضِ معَ أنّي لم أطأ غيْرَها!

لكنّ الأعمارَ لا تُقاسُ من الولادةِ بلْ تُقاسُ بالحياة، وأنا حَياتي ستبدأ قريبًا جدًّا.. مع ذلكَ التّحليقِ الأوّل، جميعُ الأصواتِ تصلُ إليَّ عبْرَ الأسْلاك مُتلهّفةً للمُسْتقبلِ المجهولِ بمطلعِ العامِ الجديد!

كذلكَ موْلدي.. يتعانَقُ الاحْتفالانِ بيْنَ الأرْض والسّماء، أُحلّق.. أُولَد.. حياتي تبدَأ الآن، فلتحْفَظ الأرْكان.. بعام ألفٍ وتسعمائة وخمسةٍ وتسعين دبّتِ بي الحياة، انتَهى المخاضُ وتحرّرتُ مِن الأرْض!

أرَى السّماءَ تتلقّفُني، تُعانقُني بعُيونها، أقفزُ أنا لا أحلّق! أهبّ إليها، حنينٌ وشوقٌ اجْتمَعا عليها، أحسَنْتُ فيها ظنّي؛ فبلغْتُ أفضلَ حُسن ظنّي!

عادتِ الجُملة ثانيةً..

«كُنْ ذا أثرٍ إنْ شئْتَ أنْ لا تَموت»..

أكّد على صاحبِه..

– لنجعلَها في بدايةِ الاخْتبار.

ودِدتُ لو أعرِفُ ما هو الاخْتبار، ولأيّ هدفٍ، لكنّ حديثَهُم اكْتمَل..

– ما زلتَ عندَ رأيِك بخُصوصِ المؤهّلين للاخْتِبار؟

– أجلْ، ولنْ أغيّر رأيي، هدَفي أكبرُ مِن أي كَلامٍ أو ظُنون، لنْ أتيحَ فرصَةَ العملِ بشرِكاتي لغيْرهم.

– حسنًا.. أنا معَك، سأرسِلُ الأوْراق لأغلبِ الدّول العربيّة التي تتْقِن الفصْحى، وسأجعَلُ مهمّة مَنْدوبينا بكلّ دولةٍ أنْ يتأكّدوا أنّ دُورَ الأيْتام فقط مَن تتسَلّم أوْراقَ الاخْتبار.

– أحْسَنتَ.. الآنَ يا صاحبَ الخيْر لم يبقَ أمامَنا إلّا السّؤال.

خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد.. مرحبًا بكُمْ في العامِ الجديد. ظهرَ الصوتُ فرحًا عبْرَ الأسْلاك لكنْ لا صوتَ داخلَ قلبي، لم أعدْ أسمعُ أيّ حِسّ منْهُما، فقط نَزيزَ الشّتاءِ على جسَدِ اللّيل، وعرْبدَةَ الرّياح على جناحيَّ المفرودَيْن، وهمَساتِ التّرحابِ بيْن أحضان النجوم. من بعيدٍ لمحتُ أضواءَ سيّارة تمرّ أسفلَ منّي.. ثوانٍ واختفى الضّوء، ومضَت فجأةً وخُنِقَت فجأة.. كوميضِ الحقيقةِ في هذا العالم وعلى تلكَ الأرض!

أشقّ الرياحَ على أطرافِ المساءِ دونَ سماع أصواتِهما، أُبعْثِر الزّمنَ المعْتِم، وأدفعُ صفيرَ الهَواء الأمْردِ وهو يتسرّبُ عبْرَ أرْكاني بتخبّطٍ مجْهول، لازلتُ أترنّحُ مِن ذلك العِناق، لم يُطفأ شوْقي بَعْد، لم يهدَأ حَنيني بَعْد..

ظهرَ صوتُ أحدِهم أخيرًا وهو يتحدّث ويكتُبُ في نفْس الوَقت..

«في محافظةٍ ما.. اشترتْ أسرةٌ طابقًا بأحدِ العَقاراتِ المميّزة، ثمّ دعَتْ باقي العائلةِ ليَسْكنوا معَها، وبعْدَما وجَدوا أنّ الطابقَ لا يسَعْهم؛ ضيّقوا الخِناقَ على باقي السُكّان حتّى يرْحلوا لكنّ أحدًا لم يفعَلْ؛ فبدؤوا بمضايقَتِهم

وإزْعاجِهم والتعَدّي عليهم، ولمّا لم تُفلحْ أيٌّ مِن هذه التصرّفات؛ فرَضوا سيطرتَهم على ما شاءوا مِن العَقار غيْرَ آبهينَ لملكيّةِ أصْحابِ الطّوابق، أو أحقّيّتهم فيها..

الآنَ، علمتَ أنّ فردًا مِن هذه الأسْرةِ اشْترى الطّابقَ الأسْفلَ منْك؛ فماذا سيكونُ تصرّفُك؟»

ما إنِ انْتهى مِن الكَلامِ والكتابةِ حتّى صفّق الآخرُ هاتفًا: «أحْسنتَ.. أحْسنتَ»

فأكّد الأوّل:

– وهذا يا صاحِبي سؤالُ الاخْتبارِ الذي سنُرسلُه لدارِ الأيْتام.

لمْ أفهَم القصةَ التي قالَها ولا السّؤال.. ولا فيمَ أحْسَن؟! لكنّ السّعادةَ التي ظهرَتْ بأصواتهما كانت مُبْهِرة، ظلّا يتحدّثان ورداءٌ مِن الألم والحَنين يتسرْبَل على أجْسادِهما، رداءٌ لا يراه غيْري ولا يتحسّسُه غيْري، لكني أعرفُ صنعتَه، وأشُمّ ريحَها..

مرْحبًا بكِ أيُّها الأمل.. حيَّا اللهُ مَن أرْسَلك!

***

مرّت شهورٌ، ولربّما كانوا خمسةً بالتّمامِ، أقبل الوفاد أخيرًا.. وأخيرًا بدأ الكلام...

على اسْتحياءٍ، عبرَتْ أشعّة الشمسِ مُخترقةً حجُبَ الغَمام؛ فأتى الرّبيعُ مُتسربِلًا حلّة الدفْءِ ومُتمّمًا جَمال نِعم الله، مُتلهّفًا كنتُ لمصافحَةِ هَدايا السّماءِ وهي تتنَزّل على جوانِبي الصمّاء تَتْرى.. ثلاثةُ أيامٍ أبيتُ في ظلامٍ حتّى اسْتَدعوني لأحَلّق..

ما أجْملَ السّماءَ بزائريها! وأوحشَ الأرضَ بساكِنيها!

بها طُرقاتٌ لكنّها نظيفةٌ منَ البَشر، صامتةٌ عنِ الهَرج، يصدَحُ تسْبيحُها بحَمدِ الله؛ فيُذهِبُ عنْ روّادِها الوَهَن، كلّما لاقيتُ السّحابَ تمسّحتُ به هامِسًا له.. «كيفَ أنتَ يا رفيقَ الطّريق؟»

فتأتيني إجابتُه عِناقًا مِن جَديد، عناقٌ لا يفْهَمه أيٌّ مِن الشّهودِ عليه، لكنّي وحْدي أفهَمُه، فلِلطائراتِ والسّماءِ أحاديثٌ وأحاديث..

كلّها مِنَ الله، ولا يشهَدُ عليْها غيرُ الله.

بجانبِ صالةِ المطارِ الفَسيحةِ بالقُبُلاتِ والعبَراتِ أقفُ مُنتظرًا ذلكَ العددِ القليل، والذي وجَبَ عليَّ حمْلُه، أثِقُ أنّ العددَ قليلٌ؛ لأنّ قلبي لا يحمِلُ أكثرَ مِن العِشْرين، فأنا طائرةٌ خاصّة.. والخاصّ مثلي مُتواضِعُ الحجْم.. كبيرُ الأحْلام!

أحْلمُ يومًا أنْ أحمِلَ بقَلبي ماءَ المطر، ليْتني كنتُ غَيمة، وبكلِّ قطرةٍ أُرسِلها تخرجُ نَبْتة، وسُقيا، ودعْوة أمل.

جناحاي المُشتاقان للتحليقِ رُبِطا بمساميرَ فولاذيّة، ومِن أجلِ الوافِدين؛ فُتحت أبْوابي القويّة.

دخَلوا.. كلٌّ يحملُ حقيبتَه، هذا أسمرُ، وهذا أبيضُ، وهذان قمْحاوان.. تعدّدتِ الوجوهُ والألْوان، زمْجرتْ أرْكاني الصّمّاء..

«هيّا أسرعوا.. أشْتاقُ للطّيَران»

بيْنَ الوافدينَ وجوهٌ قَلِقة، مُضطرِبَة، مُتحفّزة، مُسْتبشِرة، وَوُجوهٌ سَوْداء غاضِبة.. ما تلكَ الأخيرَة وجوهُ خيرٍ أبدًا!

بعدَ جلوسِهم سرَتْ قَشعريرَةٌ مُتطفّلة على كتِفِ أحدِ الوفودِ، ومِنْها إلى أطْرافهِ، فرفَعَ رأسَه يتأكّدُ أنْ لا أثرَ للشّتاء!

ظلّ وَحيدًا صامِتًا لا تؤانِسُه إلّا ارْتعاشَةُ كتفَيْه وتذَبْذبُ شفتَيْه، لمْ يَهدأ حالُه إلّا بعْدَ قُدومِ جليسٍ له.

وبعدَ بُرهةٍ، مالَ عليه، وقدْ تجمّعَت أماراتُ الحرَجِ على خِلقتِهِ مُتسائلًا:

– إلى مَتى سنَنْتظر؟

نظرَ إليْه الجَليسُ مُتفرّسًا في تلكَ العيْنينِ البُنّيتَين اللّتيْن تَنْظران إليه، والبَشرةُ السّمراء إلّا قليلًا، والفَمُ المنْفَرج عَنِ القَلق دَليلًا، ثمّ أجاب:

– سمعتُ أحدَهُم يَقول: «لمْ يبْقَ إلَّا «مِصرَ» لهذا ننْتَظر.

- أنا مِصر.. أقصدُ أنا الفائزُ مِن «مِصر».

تمَعّنَ في وجْهِه وكأنَّه يبحَثُ عنِ النّسرِ القابعِ خلْفَ الأسْوار، فلمّا لمْ يرَ أثرًا؛ قال:

- لعلّنا ننتظِرُ المزيد.

سيطَرَ الصمْتُ عليْهما مِن جديدٍ حتّى قطعَه المصريّ ثانية:

- أظنّكَ فائزًا أنتَ الآخر.. أليسَ كذلك؟

- أجلْ.. مِن السّودان.

- لغتُكَ العربيّةُ مُمتازة.

- إنّه شرطُ الاشْتراك.. ألم تقْرَأه؟

- بلى.. بلى قرأتُه.

عادَ الصمتُ سيّدًا حتّى عزلَهُ السّوداني:

- اسْمي «طاهر».

فمدّ له الآخرُ يدَه باسمًا أمامَ ذلكَ الوجْه البَشوش، والعينيْن الواسعتيْن، واللّون الأسود الذي حملَ بصْمَة المنْشأ..

- وأنا «عربي».. على اسْم والدي.

سبّبَتْ جملتُه نظرةَ اسْتنكارٍ غشَتْ وجهَ «السّودانيّ» تمامًا، تجاهَلَها «المصريّ» وهو يتّكئ على زجاجي المجاورِ له، ثمّ يعودُ فينقِلُ بصرَه بين الوجوهِ المُتَفرّقة مِن حولِه والمختلفَةِ عنْهُ في البلدِ، تماثَلَتْ أسبابُ تجمّعِهم الظّاهرية، وتعانقَتْ مصائرُهُم كذلك، كلّهم لبّوا نداءَ المسْتَقبل.. ويا لَه مِن نِداء!

بالخلْفِ، انْحَنى فتًى أبيضُ الوجْه، أحْمرُ العينيْن مِنَ السّهر، لمْ يتمّ الله عليْه نعمةَ السّير؛ فجعلَه كريمَ القَدَمين سابقتَيْه إلى الجنّة، لينظُرَ مِن نافذتي ويتطلّعَ إلى الممَرّ علّه يلمَحُ المتأخّرين، تابعتُ الطّريقَ مثلَه مُتمَلمِلًا، دقائقَ حتّى لاحتْ ظِلالٌ مُتحرّكة، ثلاثةٌ أقْبلوا على عُجالةٍ، رجلٌ وامرأتان؛ فتأكّدتْ تلكَ المقولةِ التي قصَّها عليَّ رُفقاءُ الانْتظار..

«ثِقْ أنّ وراءَ كلّ تأخيرٍ.. النِّسَاء».

عادتْ الوجوهُ الغاضِبةُ لتلفِتَ انْتباهي مِن جَديد، لا أدْري ما دوْرُهم وسطَ الوافِدين؟!

أربعَةُ نفَرٍ.. في خلقِهِم قوّةٌ ومَتانَة، تتنقّلُ بينَهمُ النّظراتُ المبْهَمة عندي، والمفْهُومةُ عنْدَهم، تتلاقَى أعْيُنُهم عندَ حقيبَةٍ مُسْتديرةٍ افْترشَها أحدُهُم تحتَ قدمَيْه، توقّفتْ همساتُهُم فجأةً عندما قامَ صاحبُ الدّعوى مِن مكانِه، وهتَفَ بصوتٍ قويّ:

– أنا «أبو ليلى» مرافقُكُم حتّى بابِ الشّركة، مرحّبًا بكُم جميعًا، مرحّبًا بكلّ البِلاد التي حَمَلتُم دماءَها بقلوبكُم، سلامُ الله على أوْطانِكُم هناكَ، وسلامُ الله على أرْواحِكُم هُنا. ساعاتٌ قليلة بإذْن الله حتّى نصلَ مِن مطار «القاهرة» إلى مطارِ مَدينةِ «الطّور» بمحافظةِ جَنوبِ سَيناء حيثُ سيسْتَقبلُكُم شَريكي الآخرُ، ونحدّثُكم حينَها عنْ وظيفَةِ كلّ مِنكُم.. كنّا لنصِلَ أسرَعَ مِنَ الوقتِ المُقدّر لكنّ بعضَ التّعديلات الفنيّة بالطائرةِ ستُسبّبُ تأخّرنا قليلًا. بالنّهايةِ، أحبّ أنْ أبلّغَكم مدَى سعادتِنا جميعًا بقُدومِكُم.

كلّ مدينةٍ أُحلّق بسَمائها تحفُرُ في ذاكِرتي بعضًا مِن ظِلالِها، تسكُنُ بياضَ جناحيّ وسوادَ محرّكي، وزرقةَ كرّاسي، وشفافيَةَ زجاجي.. لكِنْ تبقَى ذاكِرتي أسيرةَ مَدينةِ «الطّور» مُعلّقة بأهدابِها، أسيحُ في فضائها وكأنّني أعبُر الكوْنَ كلّه منْها وفيها!

جلَسوا كلّهم بقلْبي، بعضُهُم يتحسّس حَوائطي بانْبهار، والبعضُ يُحاولُ التّخْريب؛ زمجرتُ، نبحْتُ.. «توقّفْ يا صغيرُ؛ فأنا لسْتُ لُعْبة!»

الآنَ، يزدادُ شوْقي لقَطراتِ المطرِ، ليْتَني أصيرُ غيْمَة، وبكلّ قطرةٍ أُرسِلُها؛ تخرج نبتة، وسُقيا، ودعْوَة أمَل.

كلّما وضعَ أحدُهم يدَه على قطعَةٍ منْ قلْبي؛ كشفَ اللهُ لي خبيئةَ نفسِه وحديثَ صدْره، وهذا قدرُ الله عليّ، أكادُ أشعُرُ بالحَياءِ يشتعِلُ بأحدِ الأرْكان؛

فعلمْتُ أنّهما الفتاتان، ثمّ يتدفّق القلقُ عاليًا قويًّا بأحدِ الأرْكان، ثمّ الفضول بركْنٍ.. ثمّ اللّهفَة.. ثمّ الترَقّب.. ثمّ الحَماس..... ثمّ الغضَب!!

مِن جَديدٍ أتحَسّس الغضَب.. سخطٌ يفيضُ ويَسيلُ برُكنٍ مِن الأرْكان، وكأنّه جذوةٌ مِن نارِ تكادُ تشعلُ الحَريقَ بقلْبي كلّه، تهدّد بالخَرابِ والأذى، حاولتُ تجاهُلَ ما يمسّني والانْتباه للسّماءِ ومُصاحبتِها.

سلامٌ عليكِ أيَّتها السّماء..

وسلامٌ عليّ كلّمَا تجدّد اللّقاء.

ضغطَ «أبو ليلى» بيدِه على مسْندِ كرسيّه؛ فالتفّ بهِ تجاهَ الحُضور، ابْتسمَ طويلًا وهو يتنقّل بعينَيْه بين الوجوهِ كأنّما يحفَظُ تفاصيلَهم، ولمّا استقرّ على وجْه واحدٍ منْهُم أخيرًا، تكلّم:

– حدّثوني عمّا تركتُم خلفَكُم؟

أتى الصوتُ مِن ذلكَ الفمّ الذي استقرَّتْ عليْه العينَين؛ فأخرجَ صوتًا ضعيفًا، والعرقُ يتصبَّبُ مِن رأسِه خجَلًا:

– تركتُ خلْفي صديقًا واحدًا وخمسَ دَجاجات.

ضحكَ «أبو ليلى» وقدْ بدَت الصّدمةُ عليْه.. فلا بدّ أنّه لم يتوقّعْ مثلَ تلكُم الإجابَة، كذلك علا صوتُ الضّحكِ مِن السّامعين، ازدادَ الشابُّ خجلًا على

خَجل؛ فاعتذَرَ البادئ بالضّحك، وألحّ عليْه أنْ يُكمِل الكلامَ لكنّ الفتَى كان قدْ أطبَقَ شفتيْه، ولم يحرّكهُما ثانية.

نقلَ «أبو ليلى» بصرَه إلى وجْهٍ آخرَ يحثّه على البوْحِ، وبعدَ طولِ سيلٍ منْ نظراتٍ، تكلّم شابّ:

- تركْتُ خلْفي خَطيبَتي وصاحِبَ دُكّانٍ كنتُ أعملُ به يُعاملُني كابْنِه.

بدأتِ الأصواتُ تتَوافَد....

- وأنا تركْتُ خلْفي غضبَ بعْضِ الصّحابِ منَ الفِراق.

- وأنا تركْتُ خلْفي زوْجَة.

- وأنا تركْتُ خلْفي قدمَيْن..

توقّف سيْلُ الكَلماتِ والعُيونُ تنظرُ إلى الفتَى الأخير وهو يُشيرُ إلى أسفَلِه مُبْتسمًا:

- تركتُهُما وأتيْتُ.

علا صوتُ أحدِهِم ضاحكًا:

- وكيفَ أتيْتَ؟

- أتيْتُ تحملُني الفرصَةُ التي حملتْكَ!

هَدأتِ الأصْواتُ دقيقةً حتى تكلّم واحِدٌ:

– وأنا لمْ أتركْ أحدًا.. ولا أحنّ لأحدٍ.

ثُمّ بصوتٍ أقربُ إلى الهمْسِ تحدّثتْ فتاةٌ وهي تشيرُ لنفسِها ومُرافقتِها:

– وأنا.. أقصدُ نحْن.. تركْنا خلفَنا الكثيرَ مِن الغضَبِ والاعْتراض، فلا أحلامَ لِلفَتياتِ إلّا الزّواج! وكِلانا أردْنا كسْرَ العادات.

كانَ هذا آخرَ ما قيل! لا زلتُ وصاحِبي ننتظِرُ إجابةَ السّؤالِ لكنْ لا مُجيب، هو سألَ عنْ «ما تركوا» وإجاباتُهم كانتْ عنْ «مَن تَركوا»! وبينَ «ما» و «من» غابَ الكثيرُ مِن التّفاصيل!

لا حَديثَ عنِ الدّورِ منْ خلفِهِم ولا أعمدةَ غُرَفِهم! ولا قصّوا خَبرَ طعَامِهِم وشَرابِهم ورائحة زرْعِهم! ولو أنّ الدفْءَ كان فيهم غائبًا لما انْتَبهوا لضوءِ شمْسِهم ولا ميّزوها عنْ ضوءِ نارِهِم! وما حَكوا أنّ أجفانَهم قدْ طارَ طائرُ الاغتماضِ عنها حينَ أفلَ قمرُهُم! ولم يرْووا قصةَ نيلِهِم! ولم يذْكُروا قبْرَ نبيّهم! ولم يتهادوا صورَ أرضِهِم! ولم يحْزَنوا لفراقِ وطنِهِم!!

سألَ واحدٌ منْهُم ضاحكًا:

– وأنتَ يا «أبو ليلى» ماذا تركتَ خلفَكَ؟

فتبسّمَ صاحبي وأجاب:

– أنا لا أتْرُك أحبّتي خلْفي أبدًا..

قالَها وهو يُشيرُ إلى جيبِه الأيْسر المُنتفخ قليلًا، ثمّ أضاف:

– احْمِلْهُم مَعي.. فقلْبي لا يطيقُ الفِراق.

انْتهى الحديثُ بينَهُم، قَرع على البابِ المؤدّي لمَوْضعِ قيادتي، دخلَ «أبو ليلى» ليحدّث شريكَه، حوارٌ مُتصّل عبر السّماءِ والأرضِ، أكادُ أرى الرياحَ مِن حولي تقفزُ بالكلماتِ وتطْويها داخلَها لتحفَظَ الأحرفَ مِن العَبث، لطالَما تَساءلتُ.. أينَ تذهبُ كلماتُ البَشر؟!

خلقَ اللهُ لهم أُذنًا تسمَعُها، لكنْ لم يخلقْ لهُم صندوقًا يحفَظُها!

لو كانَ لها أهمّيةٌ لصنعَ اللهُ لها بابًا تختبِئ وراءه..

سأُعلِنها إذًا حتى إشعارٍ آخر... «الكلماتُ أبدًا لا تهُمّ!»

عبرَ الأسْلاك، جاء صوتُ صديقِه وشريكِه..

– أنْتظرُكُم على شوقٍ يا صَديقي.

– ونحنُ كذلك يا «أبو عُمر».

ألمِسُ الحنينَ يتَقاتلُ على أطْرافِ كلماتِهما، لطالما أدْهَشتني صحبَتُهما، صداقةٌ قديمةٌ لكنْ لا تزال تحمِلُ روعَةَ البِدايات.. عادَ حديثُ «أبو عُمر»:

– لا أدْري كيفَ ستفْعَلها يا صَديقي!

– لا تقْلَق.

– لسْتُ قلقًا، لكنّ ثلاثَ ساعاتٍ لا تكْفي أبدًا لتصِلَ إلى اخْتيارِك يا «أبو ليلى»!

– ومَن قال إنّي سأخْتار! أقوالُهم وأفعالُهم هي التي ستختارُ عنّي.

– حسنًا.. متَى ستبدأ في مهمَّتِك؟

– لقدْ بدأتُ بالفعْل، واللهَ أسألُ أن يُقدِّر ما فيه الخَير.

– آمينَ يا صَديقي.

انقطعَ الكلامُ عندَهما، وبدأ الحديثُ يعْلو بقلبي...

– مِن أينَ أنْتُما؟

أجابَ شابٌّ صلْبُ الوجه، كثيفُ شعرِ الرّأس والحاجب، وهو يشيرُ إلى الشابّ المفْرط الطول، حسَنِ الملامحِ المجاورِ له:

– مِن السعودية.. أنا «طلال»، وهو «بدر».

– وأنتَ؟

أجابَ الشابّ الذي لم يقدّر الله له حياةَ قدَميه:

– مِن المغرب، اسْمي «مروان».

بركنٍ آخر....

بادرَ بالكلامِ فتًى مُتَسربلٌ بالملاحَة، يترقرَقُ في وجْهِه ماءُ الجَمال، تقفُ الحياةُ عند كفّه الأيْسر؛ فلا ترى أصابعَه تتحرّك، يبتسمُ حَماسًا:

- مَرحبًا، أنا مِن قَطَر، اسْمي «هتّان».

تلبّس وجهُ الآخر البِشر؛ فأشْرق.. لمعتْ عيناه تِرحابًا، وانْفرجَت شَفتاه:

- وأنا مِن موريتانيا، اسْمي «الحسن». ما معْنى «هتّان»؟

- الخفيفُ مِن المطر.

تدخّل صوتٌ هازئًا:

- تسمّيتَ باسْمٍ مِن أسماءِ النّساء!

أطفأتْ جُملتُه ضحكةً كانت تولدُ على شفَتي الشّاب؛ وأبدلتْها خجلًا، عادَ الصوتُ الهازئ لشابٍّ قصيرِ الأخْدعين، مربوعِ القامة، متينِ القوى:

- لا بُدّ أنّ صراخَك أزعجَهم كثيرًا في الدّار التي آوتْك؛ فقرّروا إهانتَك بهذا الاسْم!

حاولَ الشابّ أنْ يبدو هادئًا، لكنّ صوتَه المُرتعِشَ فضحَ خبايا قلبِه، وهو يُجيب بصوتٍ يتصدّع حَسْرة:

- بلْ أمّي مَن فعَل....

سكتَ قليلًا، ثمّ أضاف:

– كتَبَتْه بعْد ولادتي وقبْلَ موْتها، بعدَها تسلّمَتني دارُ رعايةِ الأيْتام. ولمعْلوماتِك.. هذا الاسمُ للذّكور وليسَ الإناث.

انْتهى الحديثُ بينهم. «هتّان» يعني الخفيفَ مِن المطر! راقَ لي الاسْمُ والمعْنى، كأني أحملُ جزءًا مِن حُلْمي، لكنّي ما زلتُ لا أرتاحُ لجلوسِهم بقلْبي.. خاصّةً تلك الفئة السّاخِطة.

بخُطواتٍ مُرتعشاتٍ سارَ الفتى الأوّلُ «عربي» إلى موْضعِ الفتاتين المصريّتين، وجّه كلامَه إلى الرجُلِ المصاحبِ لهما، وقد بدا في رأسِه أقاحي الشّيب، وكأنّما يمسكُ بين يديه عنقَ الأرْبعين..

– أنا «عربي».

– أعلم، جاءني الورقُ الخاصّ بكَ، مِن محافظة الإسكندرية، أليسَ كذلك؟

– أجل. وأنتُم؟

– أنا والفتاتان «رحمة» و»سميّة» مِن المنصورة، أرسلوني للإشرافِ عليْهما.

– يوجد مُشرفانِ آخران كذلك، بإمكانِك التعرّف عليْهما، أحدُهما يجلسُ في.....

– لا أحتاج للتعرّفِ على أحَد، ساعتانِ وينتهي كلّ شيء؛ فلا حاجةَ لإقامةِ علاقات.

ظهرَت اسْتراتيجيةُ ذلك المُشرف جليّةً، فهو لا يُرحّب بالتعارفِ والتّسامر، كذلك فهمَها «عربي»، ألقى بصرَه بسرعةٍ على الفتاتيْن، الأولى منهُما لطيفةُ التّكوين، رقيقةُ القَوام، تكادُ تراها ولا تَراها، ينتفضُ وجهُها خَجلًا، وتخرجُ زفراتُها قلقًا، والثانيةُ فيهما لا تفتحُ العينَ على أتمّ منها حسنًا، تنكمشُ بجانب صاحبتِها فيمتَزجان حياءً.. تلكَ الكلمةُ المفقودةُ من قاموسِ الأناقة! عادَ بخطواتٍ ناقماتٍ وروحٍ باهِتة، جلَسَ مكانَه يحدّث نفسَه حديث جنونٍ....

– أنا أعلمُ تلك العيْنين..

تدخّل «السّوداني» يسألُه عن العيْنين، أحسنَ الفِعل.. فلو كانَ لي لسان؛ لفعلتُ، أجابَ «عربي»:

– أظنّني أعرفُ إحْدى الفتاتيْنِ.

قال جُملتَه، ثمّ عادَ إلى سكونهِ دون َإضافةِ حرفٍ واحد.

التفتَتْ واحدةٌ منَ الفَتياتِ خلفَها تنقّب بعينَيْها عنْ أحدٍ ما، تتشبّثُ بأحدِ مُساندي، ضغطتْ بقوّة وبصرُها يستقِرّ على وجْه «عربي»؛ فثارَ ما كان بنفسِها كامنًا، وانزاحَ بعضُ الماءِ مِن مُقلتيْها، دقيقةٌ ثمّ أبعدَتْ عينيْها مُرغمةً

بعدَ تنْبيه المُشرفِ لها.. مرّ الوقتُ ولا تزالُ تخالسُه النظرَ مِن حينٍ إلى حين، وينظرُ هو إليها إنْ غضَّت عنه، وتُغضي عنه إنْ نظرَ إليْها، حتّى إذا ما الْتقى نظرُها بنظَرِه؛ احمرَّ وجهُها حُمرةَ الغضبِ، ونزفَ جبينُها ماءَ العَرق، ثمّ فرّت العُيون مِن بعضِها فرارَ الدّاءِ من الدّواء!

ابتدَرَ «السّوداني» صاحبَه يسأله:

– ماذا صنعْتَ بالاخْتبار؟

أجابَه «عربي»:

– لا بدّ أنّ إجاباتِنا كلّنا تشابهَتْ، وإلّا ما دعَوْنا إلى المقرّ الرئيسي.

– أكيد، ماذا كانتْ إجابَتُك؟

– يا «طاهر»، إجابتي أكيد كإجابتِك.. «وضعُ شرطٍ قَضائي على هذا السّاكنِ الجَديد ليرهبَه في حالةِ إنْ أراد السيرَ على خطى أسرتِه»

– لكنّ تلكَ لم تكنْ إجابتي، أجبْتُ.. «لا يتمّ تمليكُ العَقار لهذا الشّخص أبدًا.. فقط يُسمَح له بالإيجار».

علا الصّوتُ؛ فتدخّل بعضُ الحُضورِ في الحوار:

– وأنا إجابَتي كانت.. «شراءُ هذا الطابق، وعرضُ سعرٍ أعْلى له حتى لا يستطيعَ الساكنُ الجديد المكوثَ فيه».

– وأنا.. «إزعاجُ الساكنِ الجَديد ومضايقتُه حتى لا يجدَ أنّ العقار مميّزٌ كما يظُن».

أتى حديثٌ مِن الخلف:

– وأنا فيما يهمّني العَقار؟! كلّ فردٍ أوْلى بالمحافظة على بيتِه، إجابتي كانت.. «ما دامَ لم يخالفِ القانونَ بعد؛ فلا بأسَ عليه»

علا أحدُهم برأيه:

– أظنّ إجابتكم كلّها اجتمعتْ بـــ «المحافظة على العقار»، لكنّ إجابتي كانت صريحةً.. «مغادرة العقار»!

شقّتْ كلماتُ أحدِهم المُستنكرةُ صمتَ الانْتظار:

– ضحّيتَ بالعقار!

الأماكنِ وحدَها تهتفُ.. «أين ذهبَ الحنينُ للدار؟!»

سكتَ الجميعُ بلا إجابة، أيديهم تعبثُ بقطعِ قلبي المتناثرةِ أسفلَ منهم وعلى جوانبِهم، تحملُ نبضاتُهم خبيئةَ نُفوسهم، قلوبٌ ملفّفة مُضطربة لا يفارقُها السّخطُ على الأرضِ وساكنها، والنّقمة على السّماء وخالقِها! تلتهبُ نفوسُ بعضِهم بحمّى الأمل، ويغشَى نفوسَ البعض سقمُ الظّلم! رؤوسٌ منهم تمتلئ حكماً وثباتًا، ورؤوس لا يملؤها إلّا الهواء المتردّد! أرواحٌ تتعلّق بقشّةٍ منْ أمَل، وأرواحٌ تبحثُ عنْ شجرة الأمَل لتحرقَها مِن جُذورها!

نبضاتٌ مِسكينة، مُخيفة، مُتخبّطة، أجسادٌ قويّة مِن الخارج هشّةٌ من الدّاخل، تكادُ تزوي أمامَ رياحِ الذّكريات. لو كانَ لي الاختيارُ لما اخترتُ أمثالَهم لكنّي لم أملكْ يومًا هذا الحقّ؛ فقبلتُهم على عِلّاتهم.

كان الصمتُ داخلَ قلبي مَهيبًا، وكأنّ الجميعَ قرّر السكونَ في وقتٍ واحد، كحالِ القمر حين يهجَعُ في حضنِ السّحاب، ويتدثّر به مُختبئًا ومُنتظرًا سلامَ الشّمسِ عليهِ نهارًا.

حينَها قامتِ الفئةُ الغاضِبة مِن مكانِها، توجّه ثلاثةٌ منْهم.. كلّ إلى مشرفٍ، واتّجه الرّابعُ إلى «أبو ليلى» بداخلِ حُجرةِ القيادة، أخرجَ كلّ فردٍ منْهم حديدةً مُدبّبة؛ ووجّهَها إلى صدْرِ مَن يقفُ أمامَهم، ثمّ هتفَ أضخمُهم:

- لا يتحرّك أحدٌ مِن مكانِه!

***

الأرضُ، عام ٢٠١٧

عادتْ سحائبُ الغُبار إلى أحْضاني لاهثةً نادبةً ذلك الفقدَ وتلك الغربةَ التي أبعدَتْها على متْنِ الرياح صعودًا، ثمّ عادتْ بها إليَّ نُزولًا؛ فحطّت وقدْ أرهقَها الفِراق وحلّ بها الإرْهاق، ركنتْ إلى أضْلعي لتنامَ نوْمةَ السّكون! وما إنْ حلّت واسْتحلّت ذلك الهدوءَ حتى لفحَتْها صفعةٌ جَديدة مِن هواءٍ

قدْ جيئ به سيّارة؛ فانتفضَ الغبارُ غضبًا عنْ أضلعي، وأسْلمَ للرياح مِن جَديد ذرّاتِه مُتكئًا على حنايا تلكُم العَجلات الزّائرات!

غادرَ الغبارُ دونَ وداعٍ أو عِناق! فهلْ هكذا يفترقُ الرّفاق؟!

جيئ به مِن بطنِ الصحراءِ بعْدي بخمسِ أجْيالٍ منْ رمال.. ولا زالَ ذلك الغبارُ يُتابع الكسلَ والدّلال! انتهتْ دقائق الهرَج، وحلّ مَن حلّ، ورحلَ مَن رحل!، أجسادٌ تملكُ قصصًا جديدة، تافهةً أو فَريدة.. أيًّا ما كانَ وصفُها فهي أفضلُ منَ الإنْصاتِ لحَديثِ النّساءِ حوْل النّار، وخبراتُهم في فنِّ تقْطيع الخُضار! بجهلِهِم ما عَرفوا حُضوري مع أنّي عَلمتُ منذُ أزمان أنّ عندَهم مثلًا قديمًا يقول.. «انْتبه؛ فللأرضِ آذان»!!

لا زالتْ حكاياتُهم تُصيبني بالمللِ، لكنّ هذا قدرُ الله في.. أنْ لا أملكُ غيرَ الاستماع! إلى أنْ يأتي اليومُ الذي يأمُرني فيه بالتحرّكِ والانْفلات؛ فتتصدّع أضْلعي وتنتصبُ أرْكاني وتخرجُ مِن فمي النّيرانُ كزفيرٍ غاضبٍ أو بلاءٍ صاعِد، أمّا الآن فسأكتفي بالصّمتِ حتى أُحكِمَ الإنْصات!

طوالَ هذا العام.. لم يأتِ الكثيرُ من البشَر؛ فكانت كلّ تلك القرى يسكنُها السلام، فعامُ ألفين وسبعة عشر لم يمرّ كسابقيهِ منَ الأعوام؛ تصدّعت الأرجاءُ بكثيرِ أحداث؛ فباتتْ أكتافُ العالم مُثقلةً بالأحْزان! حتّى إذا ما أتى «ديسمبر» شهرُ الإجازات! أقبلَ البشَر من كلّ صوبٍ؛ حيثُ الراحةُ

والسكات. سمعتُ أنّ هناك اختراعًا جديدًا لمدينةٍ بالصينِ ستنشُرُه خلال أيام.. «نظارة للعين» لكنْ تسافرُ في طيّاتها الأفْهام! أماكنُ جديدة ورحلاتٌ عديدة دونَ أن تتحرّك الأقْدام، فسبحانَ مَن قدّر علمَ الإنسان! وعلى الرّغم من كلّ هذا التقدّم إلّا أنّ الأنفسَ تأتي خصيصًا لهذه البُقعةِ منْ جسدي لتبلغَ إحدى الحسنيَيْن.

الأولى.. قريةٌ صَغيرة تملأها الأزهارُ وتجري فيها الأنْهار، بها رؤوسٌ مِن نخيل، وليلُها يسري طويلًا، ونهارُها ضوءٌ وفرحٌ، ولعبها رميٌ وركوبُ خيل! نساؤها يخجلنَ دومًا! ورجالُها يصطدْنَ بحرًا، ويُسمَح فيها بطبخِ السّعادة، ويجري مِن أهلها خُلقُ الأناقَة! لكن تُمنَع عنها الحضارة، وكلّ ما يُسمّى بكهرباءِ الطّاقة!

والثانية.. قريةُ الأماني، وبها تعلو الأغاني، أزهارُها آليّةُ الصّنع، وأشجارُها قُطّعت للدفء، وثمارُها لا تخرجُ بالزرعِ، أمّا أبنيَتُها.. فأبوابُها ستائرُ برّاقة، وغرفُها تُضاء بالطّاقة، وآلاتُها تزورُ الإنترنت دومًا، ولا يُسمَح فيها بـــ أيّ حَماقة!

تجري الأقدامُ مِن فوْقي، مثلُها كغَيْرها.. تسيرُ دونَ اسْتئذان! فهَكذا بسطني اللهُ للإنسان.

بأحدِ الأرْجاء نبتَ حوارٌ صاحِب بينَ خمس رجالٍ وثلاثِ نساء...

– أخيرًا.. وصلْنا يا أحباب.

– سأدعو لصاحب هذه القرية كلّ مساء على ما يوفّره فيها من راحة ونقاء.

– شَوْقي لهذِه القريةِ يذكّرني بشوْقي لنفْسي القديمة.

– أيّام الاعتمادِ على النّفس!

– بالنسبة إليّ.. تذكّرني بيوم كنتُ أنامُ فيه مُطمئنًّا دونَ الحاجةِ لجهازِ الإنذار المثبّت بكلّ أرْجاء مَنزلي الآن!

– وأنا.. يكْفيني أنْ أنامَ دونَ الحاجة لـ ضبطِ المنبه.

– أظنُّكُم أيّها الرّجال تميلون لأيّامِ البدائيّة الأولى!

– لا، بل مُتلهّفين إلى تلكَ الفترةِ من السّكينة والاسترخاءِ التي لا تُتاح لنا الفرصةُ إليها إلّا مرةً بالعام.

– وهل سيكونُ هذا ردَّ فعلِ أبنائنا؟!

لم أسمعْ بعدَها غيرَ الصمت، وكأنّهم لا يستطيعونَ تحديدَ موقفِ أبنائهم! حتى مرّت دقيقةٌ وتكلّمت امْرأة:

– ثلاثةُ أيامٍ فقط! مؤكّد سيتحمّلون ثلاثة أيام.

– أجل.. ولا تنسي أنّ عملَهم الجديدَ يتوقّف على هذه الرّحلة.

- لا أدري حقًّا كيف أقْنَعتموهُم بها؟!

- تقصدينَ أنّهم كانوا ليرفضوا لنا طلبًا!!

- لا.. لم يعْتادوا الرفضَ دونَ إبداءِ أسباب، ولنْ يبدأوا الآن، أنا أقصدُ كيف اسْتطعتُم إقناعَهم بالابتعادِ عن العملِ والخروجِ معنا بهذه الرّحلة؟

- نعم.. يشغلُني ذاتُ السؤال، خاصةً أنهم كانوا يرفضونَ المجيء معنا إلى هذه القرية كلّ عامٍ مُتعلّلين أنّ غياب الهاتفِ والإنترنت سيمنعُهم مِن متابعة سيْرِ الأعمال؟!

- أنا أخْبركِ.. باليومِ الذي جاءَ فيه السّبعة إلينا، وتدخّلوا بـ «مُقابلات العمل» التي وضعْناها لاختيارِ المُدَراء الجُدد، وأعْلنوا اعْتراضَهم على إزالتهم مِن اختيارات التّرشيح؛ قرّرنا، مِن بابِ العدلِ بحقّهم، إدراجَهم في قائمةِ التقدّم للاخْتبار.

- وبعْدما مرّوا بكلّ الامْتحانات والتّعقيداتِ وأحْسنوا العملَ فيها، وبعدما نالوا أعلى درجاتِ التّقييم.

- لم نجدْ حينَها أكفأ مِنهم؛ فتمّ بيننا وبينَهم اتّفاق.. لحينِ تجهّز مكاتبُهم الجديدة يجبُ عليهم السّفرُ معنا بهذه الرّحلة، والتي لن تزيدَ عنْ ثلاثةِ أيام.

- حتى إذا أتى ظهر اليومِ الرّابع؛ سلّمناهم بأنفسِنا مكاتبَهم وعملَهم الجديد.

– لازلتُ لا أفهم.. لماذا أصْررتُم على شرطِ المجيء هنا وأنْتُم على علمٍ مُسْبق بكرْهِهم لهذه القريةِ البدائية؟

– للحقّ، أنا لا ألومُ بُغضَهم هذا.. فهُم شبابٌ لا يتعدّى أكبرُهم التاسعةَ عشر من عمْره، نشأوا على توفّر الأجهزةِ الإلكترونية، ومساعدتِها في كلّ شئون حياتِهم وفي أعمالهم.

– لكنّنا لم نربّهم على الاعتمادِ عليها في التّعامل مع البشر، أوْ معَ الحياة بوجْهٍ عام!

– اعلمْ ما ربّيناهم عليه يا صَديقي.. لكنّهم مع الوقتِ ركَنوا للأيْسر!

– حسنًا، كفانا قلقًا.. ترْبيَتنا لهم لم تكنْ يومًا يَسيرة، لكنْ بتوفيق الله أوْصَلناهم لمرحلةِ الرّجولة الجّسديّة والقلبيّة، وما ترتّب عليه مِن معانٍ إنْسانية، وإنسانيّتهم شرطٌ رئيسي بعملهم، وإنْ لم تكنْ تربيَتُنا لهم تسكنُ بالفِعلِ قلوبَهم وأرواحَهم وعقولهم؛ فإذًا هُم كالملح! يذوبُ بسرعةٍ أمامَ فوْرة المياه.

– فلا فلَحْنا ولا فلَحوا!!

– قلْبي لا يطمَئن..

– إنْ أرادوا إثباتَ أنْفسهم؛ فليثْبتوا تلكَ المعاني الواقرة فيها، ويتحمّلوا تلكَ الأيام الثلاث.

- ولكن..

- اهدأنَ أيّتها الأمّهات.. فهذه المعاني لا تحتاجُ جرحًا بالجَسد لتخْرج، بل هي ما يميّزهم، تجري بقلوبِهم وأرواحِهم، وظهورُها منهم لا يستلزمُ أي مخاطرةٍ؛ فلا تقْلَقن.

لا أظنّ أنّ قوةَ طبقاتي وتحجّر أرْكاني ورسوخَ جبالي؛ قد أوْرَثنني قلبًا صَلدًا صلبًا ينبضُ بالجَفاء؛ فيعبثُ بالحقيقةِ التي علقتْ بأضلعي مِن أنّ هؤلاء الزّمرة مِن بشرٍ قد نالوا كلّ احْتقاري! فهلْ هذه هي سماتُ نساءِ هذا القرْن؟ أنْ تخشى أعينُهن ملحَ الدّموع! أحْسبُ لو أنّ الأمرَ بأيديهن؛ لربَطوا أبناءهنّ بالمنزلِ ولمنَعوا ضوءَ النهار أن يصلَ إليهم حتى لا تجرحَهم أشعتُه، ولنوّموهم بأحضانهنّ حتى لا تزورَ الأحلامُ المخيفة ليلَهم!!

فكيفَ بهنّ لو أنّ أرواحَ أبنائهنّ معلّقةٌ بغَنماتٍ هَزيلاتٍ يَسوقُهنّ إلى الجِبال في الصّباح، ويبِتْن لياليهنّ في جوْفِ الودْيان!

وماذا لو أنّ أعمال الأبناءِ تتطلب ركوبَ الجِمال، والسّير بالصحاري والوديان، ومحاربة كلّ ظالمٍ فاجرٍ جبان!!

أو أن تكونَ أعمالُهم في دربِ التّجارة، والربح القليل، أو كثير الخسارة! ثمّ يفتح اللهُ عليهم بسفرٍ طويل وعملٍ جليل، لكنْ وجب التحلّي بالشجاعة، وضبط النفس وتركِ الخلاعة!

أحسبُ حينها أنّ النساء سيَحْضرن برًّا، ويأتينَ بحرًا، وينزلنَ جوًّا؛ فلا يقولوا مهلًا، ولا يُنادوا صبرًا؛ فقط سيُعانقوا أبناءهن بشوقٍ، ويلبسُوهم أساوِر وقِلادة!!

فواأسفاه لتلك النساء.. أرضعنَ أبناءهنّ لبنَ الهوان! وإذا تمايعَ منهم صبيٌّ؛ لَتَقول أمّه.. «دعيه.. فما أحلى تقليدَه للحِسان»!!

فيا اللهُ ما لي وللبشَرِ! إنْ هم حلّوا أو ارتَحلوا!

يكْفيني منهم ما يُغضبني ويُشْقيني، ما لي وللبَشر!

– تقصد أنّ حضورَهم معنا مِن أجلِ مُعاينة تلكَ التربيةِ التي تركْناها فيهم؟

وأنّ هذه القرية البدائيّة اختبارٌ لهم؟!

سكتَ قليلًا، ثمّ أجاب:

– ومَن قال أيّ شيء عنِ القرية البدائية!؟

***

«أمّا قبلُ»

«وكيفَ حالي إنْ صرتِ منّي مطّلقة. أوْ بتِّ ليلَكِ بغير ذاتِ الدّار؟!»

هكذا أسْمعَها «إسماعيل» بعدما أخبرتْه أنّ حديثًا بينهما وجَب.

ضحِكَت «نُور» حتى نزلَت أشِعّتها على وجْه زوجها، فأحيَت بنفسِه ما أحيَت، ثمّ قالت:

– ومِن أينَ أتَى ذِكرُ الطّلاق والعياذُ بالله؟

– أنتِ قلتِ لنتحدّث.. فظننْتُ أنكِ كرهتِ مني انْشغالي، وسوءَ توقيتي وأعْذاري.

– استعذْ بالله يا زوجي، بل أردتُ إعطاءكَ البشارة.

– وأنا أردتُ إهداءكِ بشارتي.

– إذًا عجّل ببشارتِك.

أخذَ نفسًا قويًّا، ثمّ قال:

– بعد أربعةِ أعوامٍ فقط من إقامةِ شركتنا.. اليوم انْتقلنا رسميًّا مِن فئة المقاولاتِ الصغيرة إلى فئةِ المقاولاتِ المتوسّطة.

قفزتْ «نُور» من فرحتِها مُعانِقةً زوجها، والذي أضاف مُتحمِّسًا:

- وقد قررتُ إهداءكِ جزءًا من هذه البشرى، وتغيير مسمّى قِسم حلّ الأزمات إلى..

«نور لحلّ الأزمات»

غلبَتها عبرةٌ حاولت إخفاءها، لكن فضحتْها نبرةُ صوتها وهي تهمسُ له مازحةً:

- أتُطلق اسمَ زوجتِك الثانية على زوجتِكَ الأولى!

فأجابَها ضاحِكًا:

- قدْ أعطاني الله زوجتَين متفاهمتيْن.

وكزَتْهُ بجانبِه مغاضبةً وهي تهتف:

- لو كانتْ لك زوجة أولى حقًّا لكانت أهونَ حالًا من غيابك وانْشغالك بالعملِ عنّي يا «إسماعيل».

فتعمّد إغاظتَها مُعترِضًا:

- أنتِ وافقتِ مِن البداية على القِسمة بينكِ وبين عمَلي يا زوجةَ «إسماعيل»!

جلَست أرضًا تصطنعُ الخِصام؛ فاقتربَ مُعتَذِرًا ومُنتظرًا منها عفوًا، ولمّا سامحتْه ذكّرها ببشارتها؛ فقالت:

- سامحتُكَ لكنّي لا أثِق أنّ ابني سامحَك.

بُهِتَ وهو ينظرُ إليها، يتنقّل بصرُه بينها وبين موضعِ حملِها، تتلاشى الأحرفُ على أعتاب شفتيْه، غير مصدّق.. غير واعٍ، سقط أرضًا، صامتًا.. فرِحًا باكيًا، يمسك بيدِه مُجسّمَ الفراشة الذي لا يفارق مفاتيحَه، لم يتكلّم.. فقط جذبَ زوجتَه بحرصٍ وكأنها قارورةٌ يخشى تهشيمَها، ضمّها إلى صدره وسكَن، وبعقلِه حيرة.. فهو لا يدْري كيف يحقّق تمامَ حمدِ الله على تَينِك البشارتين.. كِبر شرِكته وامتِدادِ نَسلِه!

***

هبَّ «إسماعيل» مُغادرًا مكتبَه، ويدُه تُسرِع باتجاهِ معطفِه، وقد ظهر على وجهِه عظيمُ الاهتمام، لمحَه «خليفَة» الذي لم يكدْ يرَهُ حتى أسرع الخُطا إليه يستفهِم منه أمرًا، عاجلهُ الأول بضرورة المغادرة بسببِ انْهيار أحد الأبنية فوق رؤوس ساكنيه بقريةٍ مجاورة؛ هُنالِك لم يجدِ الثاني بدًّا مِن أن يُمسِك كتفَ صاحبه وهو يحدّثه بلهجةٍ مُعترضة:

- توقّف يا «إسماعيل». ألا ترى أنّك أعطيتَ قِسمَ «نور لحلِّ الأزماتِ» الكثيرَ من الوقت والجهد والمال؟!

نظرَ «إسماعيل» إليه بحيرةٍ، فأكملَ «خليفَة»:

- صرفْت الكثيرَ من مالِ الشركة...

قاطعهُ «إسماعيل» وهو يقولُ بحزم:

- دعْني أوقِفك عندَ هذا الجزء يا «خليفَة».. ألا ترى أنّك تتعدّى على أهمّ شرطٍ اتفقنا عليه يومَ إنشاء شرِكتنا، والذي يُعد ركنًا أساسيًّا من شراكتنا بما أني صاحبُ النسبة الأكبر من رأس المال.. وهو إقامة جزءٍ منها على خدمةِ الناس، ثمّ بعد ذلك تَطوّر الأمر لـقِسْم حلّ الأزمات، ثمّ بعد ذلِك صرتُ أنا الممولَ الوحيد لهذا القِسْم، ثمّ بعد ذلك...

ابتسمَ «خليفَة» بحرجٍ وهو يقاطعُ «إسماعيل» معتذرًا ويقبضُ بيده على فراشة مفاتيح الأخير يضربُ بها الطاولة:

- لم أقصد كلَّ هذا يا صديقي، أنا فقط أراكَ تبذلُ الجهد والوقتَ، وكأنّك تحملُ همّ الدنيا، هوّن عليكَ يا رجلْ واهتمّ ببيتِكَ وولدِك الذي لم يأتِ إلى الدنيا بعد.

أبعَدَ «إسماعيل» يدَ «خليفَة» عن فراشتِه الصغيرة، وهو يرمقُه بنظرةٍ تشتعل غضبًا قائلًا:

- لا تحملْ همّ بيتي يا صاحبي، فقدِ اتّفقتُ أنا وزوجتي أنّ ما أفعلَه سيفعلُه بعدي أبنائي.. فالمال من عِند الله، والجهدُ والوقت من الله؛ إذًا....

ثمّ أشار بيدِه على صدر «خليفَة» وهو يضيفُ بحزم:

- لا تَدَع قلبَك يقلق أبدًا.

الطـائـرة، عام ١٩٩٥

الأربعة مقيّدون بكراسيّ ولا فِكاك، هكذا فرّ الإنسانُ من ذاتهِ عند منعطف.. «تجبّر ما شئت ما دُمتَ الأقوى»!

هبّ صراخُ الفتاتيْن بلا انقطاعٍ كعاصفةٍ تنحدرُ عبثًا، وتنسفُ جذور الأرضِ مِن تحتها؛ فلا ترى بعدَها الأخضر!

لطَم واحدٌ من الأربعة أقربَ الفتياتِ منه مجلسًا، ورفع يدَه لينزلَ على وجه الأخرى، لكنّها انكمشت فزعًا واضعةً رأسها بين فخذيْها تصدرُ صريخًا مكتومًا، أمّا الشباب فلا خبر.. الصدمةُ أوجعت أفكارَهم؛ فعطّلتها! كانت الشمسُ تضحك منذ دقيقةٍ على الوجوه، الآن احتضرتِ البَسْمة.

أتى صوتُ «أبو ليلى» مُخترقًا هيبةَ الرّعب:

– ماذا تريدون منّا يا بني؟ ومَن أنتم؟

رمقَه أحدُهم بسخرية، كأنّما يحاول تعريةَ الكلماتِ من أقنعتها:

– أولًا أنا لستُ ابنك...

ثانيًا.. مَن نحن ؟! الأمرُ بسيط حقًّا.. لقد قامَ بعض الفائزين الحقيقيّين بإعطائنا أماكنهم..

طوعًا أمْ كرهًا؟ مِن فضلك لا ترهقْ عقلك بالتفكير.

سألَ «أبو ليلى» بنبرةٍ ساخطة:

- ماذا تُريدون؟

- نريد الحرّية يا رجل.. وأنتم جميعًا تذاكرُ سفرنا...

رانَ صمتٌ مِن الجهل بما يعني، فأضافَ ناقمًا:

- أسطولُ شركاتكم يجيبُ هذا السؤال.. تملكون المالَ ونحن نريده.

- وماذا ستفعلُ بنا إنْ لم ندفع؟

- لا يعنيكَ أكثر مِن هذا، والآن ليتكوّم الجميعُ بالجانِب الأيمن.

فُكّت الأربطةُ، وجلسوا بشطري الأيمن. أراهم وقد ساءتْ أحوالهم، منهم مخلوعُ الفؤاد، ومنهم مَن تتزلزلُ أقدامه، ومنهم مَن يأكل أظفاره، ومنهم..... ومنهم....

خمسةُ عشرَ فردًا اضطربَت حواسُّهم، واقشعرّت جلودُهم، وتغيّرت ألوانهم بعدما هتَك الخوفُ قميصَ قلوبهم، لم يحْتَمِ أحدُهم بالآخر، ولمْ يدافع أحدُهم عن ظهر الآخر، كلّ يحفظُ نفسه، يضمّ جسده ويخفي وجهَه، وكأنّما ترفّ على رؤوسهم ظلالُ الموت!

ألقى «عربي» نظرةً على «سميّة» لم يسترجعها إلّا مبللةً بالدمع، ورأتْه هي أيضًا فاصفرّ وجهُها صفارًا شديدًا، رفعَتْ يدها إلى دمعةٍ تترقرَقُ في عينيْها

فمسحتْها قاطعةً ماءً لا أحسبُه إلّا مطرَ الحنين، فلا أعرفُ أشدّ منه قهرًا، ثمّ مدّت يدها أسفلَ مقعدها حتى إذا ما وصلتْ إلى حقيبتها؛ أخرجتْ منها عصًا خشبيّة قابلةً للامتداد، ثمّ أخفتْها بين حائطي ومِسندي..

أخيرًا رأيتُ بعضَ الرجولةِ في النساء!

وفي غفلةٍ من الخاطفين، تحرّك أحدُ المشرفين بحذرٍ، وكأنما ينسلّ مِن خيوطِ مصيدةٍ، بنصفِ هِمّة وبعض رجولة تسلّل يحمل أملًا أعرجَ في التمرّد، يقدّم طرفًا ويزحفُ بالآخر، إلى أنْ وصل في تنقّلهِ إلى شابينِ يعرفُهم ويعرفونَه؛ فهُمْ أمانته من بلدِه؛ فتوقّف أمامهم دقيقةً ثمّ ابتعد عن موضعِهم ونادى بصوتِ الواثقِ:

– سأقدّم لكَم عرضًا.

أقبَل عليه أضخمُ الأربعة مزمجرًا:

– ومَن قال إنّي سأقبل!؟

– عندي معلوماتٌ ستساعدك، استخدمني بشرطِ أن تجعل لي نسبة.

كانَ لجُملته وقعٌ مقزّز ظهرَ جليًّا على ملامِحِ السّامعين كلّهم، وممّا زادَ من بشاعة الكلمات.. كان أنه انحنى حيث موضع «سميّة» وجذبَ العصا التي أخفتها، ثمّ سلّمها إلى مُحدّثهِ، ولسانُه يتذلل:

– أرأيتَ؟ أشْركني إذًا وسأفيدكَ جدًّا.

بذاتِ الوقتِ نادى أحدُ الرجال على الضّخم طالِبًا منه القدومَ إلى غرفة القيادة، لا زالتِ العيون معلّقة بذلك المشرف الذي نسي أمانةَ عمله فلا حفظَه قولًا، ولا أخلص له عملًا!

إحْدى الفتياتِ يضطربُ جسدها شيئًا فشيئًا، ووجهُها يربدُ شيئًا فشيئًا، ولسانها يرتبكُ شيئًا فشيئًا:

- أمّي ولدتني للشقاءِ في هذا العالم!

فضمّتها الأخرى، وبكتْ معها؛ فامتزجَ الماءان، همسَت إليها:

- لنقتسِمَ الشقاء، مع أنّ همّي يفوق همّك لكنْ بالمشاركةِ تختلفُ الأحزان.

بقي اثنان، واختفى اثنان داخل غرفةِ القيادة، عبرَ الأسلاكِ أتى صوته فزِعًا:

- لنْ أغفر لكم إنْ مسستمْ شعرةً من رؤوسهم.

ضرب أحدُ الرجال حائطي بقوة، وهو يصرخ:

- لن يأخذنا بمحمَلِ الجدّ!

أشارَ له الضّخم بالصمتِ، ثمّ ضغط زرّ الرّد:

- الأمرُ كالآتي.. الطائرة ملكي، فإن أردتَ الحفاظَ على حياةِ مَن عليها؛ فيجب عليك الحديث بأدَب.

بعد دقيقةٍ، وبنبرة أقلّ حدّة:

– حسنًا.. ما طلباتكم؟

– أدبٌ أكثر من هذا.

وبصوتٍ تملّك منه الوهنُ أتى حديثُه عبر الأسْلاك:

– حسنًا.. كما تشاء، فقط لا تؤذِ أحدًا، وأخبرني طلباتك.

لم يأخذِ الضّخم وقتًا للتفكيرِ أو التشاور مع أحد، قطع صمتَ الإجابة:

– نريدُ مائتي ألف جنيهٍ عن كلّ فردٍ على هذه الطائرة، ويتمّ تجهيز الأموال كلّها في خلال نصف ساعة.

– لكنّ المبلغ كبير جدًّا، ولن أستطيع التجهيزَ في الوقت المناسب.

تحلّى الرجلُ برداء الكبرِ وهو يحذّر:

– لا يهمّني غير المال، سأقتلهم فردًا تلوَ الآخر كلّ عشر دقائق حتى يأتيني ردّك.

أتى الصمتُ رفيقًا عبرَ الأسلاك، ابتسم الضّخم لصاحبهِ ابتسامةً حملَت الكثير من الإيماءات التي لم أفهمْها قبل أن يضيف:

– بدأ العدّ.. أمامكَ عشرُ دقائق.

لكنّ نبرةً متلهفة واثقةً أتَت:

– موافق.. موافق، لا داعي للعدّ، فقط أخبرني كيف أوصلُهم إليك؟

انخفضَ جناح الكِبر الذي أحاطَ بالضخم، وقد بُهِتَ من سرعةِ الموافقة، يكاد يتميّز من الغيظ، أشار له الآخرُ إشاراتٍ غير واضحة المعنى، لكنّ وجهه وشى باضطرابٍ غير مبرر، ثمّ ضاقتْ عليه مسالكُ صبره وهو يهمِس:

- وافقَ الرجل.. ماذا نفعل؟

هتكَ الضّخم عن نفسه رداءَ الثقة، وزمجرَ بصوتٍ أشدّ وقاحةً من كلماته:

- ابقَ هنا لمراقبةِ الطيّار، ولا تسمح بصدور أو وصولِ أيّ مكالمات.

انصاعَ الرجلُ للأمرِ، وخرج الضّخم من غرفة القيادة، وتوجّه إلى المشرفِ الذي لا زال ينتظرُ قبول عرضه؛ فوضع يدَه على كتفه، وأعلى صوته:

- ما دُمتَ حقًّا تريد المساعدةَ؛ فمرحبًا بك.

ابتسمَ المشرفُ ابتسامةَ الظافر، لكنها ما لبثتْ أن تلاشت وهو يرى الضّخم وقد رفع يدّه التي تحمل الحديدة عاليًا، ثمّ نزل بها على رأسِه! ضربةٌ واحدة موجهةٌ بعناية أنهَت الحياةَ تمامًا ولم يعدْ لها أثرًا باقيًا في جسدِ المشرف! زفرَ الضّخم بعدها بقوة، ووجّه كلامَه لـ «أبو ليلى» الذي لا زالت الصدمةُ جليةً على وجهه:

- لقد رفضَ شريكُكَ دفعَ المال، مِن الواضح أنّ مجموعةً من الأيتام برأيهِ لا يستحقّون أبدًا ضياع ماله.

لا أجدُ تفسيرًا لما فعل، ألم يكنِ المال هو طلبَهم!!

لماذا قتلَ المشرف إذًا وصاحبُ المال بالفعل وافقَ على دفعه!

هل هذا هو الإنسان؟!

ليتني لم أحملْ يومًا بشرًا، أفسدوا قلبي والهواء والسّماء..

ليتني وُلدتُ غيمة، وبكلِّ قطرة أُرسِلها؛ تخرج نبتة، وسُقيا، ودعوةُ أمَل.

هل أستطيعُ الإحساس!؟

أرى الحقّ والباطل.. وأعلمُ الحقّ من الباطل، وأملكُ قلبًا من فولاذ، لا ورِيد.. لا بُطين.. لا دِماء.. إذًا أنا لا أستطيع حتى الاسْتياء!

مع أني أشعر باللمساتِ والهمساتِ والعبراتِ...

أسمع الكلماتِ والضحكاتِ والأنّاتِ.

لكني لا أُصدر النبضات..

لا أقع بالعثرات...

لا أهمس الآهات،

إذا لا قلب؛ لا إحساس!

ما زال دمُ المشرف ينْهَمر، ساخنًا، غاضبًا، أحمرَ، لو أني أملِكُ إحساسًا لحزنتُ، فلا أحد يستحقّ مثل هذا المصير، لكني لا أملِك؛ فلماذا إذًا أجدُ هذا الغضبَ يتأجّج داخلي؟

الفتياتُ لا يصرخن، الشبابُ لازال معطّلًا، «أبو ليلى» ينظرُ نظرةً فارغة لا تحملُ أيّ معنى، أمّا القاتل فقد وقفَ يمسح حديدتَه بجزءٍ من ملابسِ المقتول، ثمّ تلاقى الأربعةُ داخل غرفةِ قيادتي، لا بدّ أنهم رأوا أنْ لا حاجة لمراقبةِ قلبي ومَن فيهِ؛ فالكلُّ يتأرجح بين الذهولِ والرّعب معًا.. ممّا لا يسمح لهم أبدًا بالحراك.

لملمَ «عربي» شتاتَ روحِه، ثمّ فزع إليها، خوفًا عليها، ناداها..

يا «سمية»؟. لَمْ تجب، وضع يداه على كتفيها، هزّها؛ حرّكَت رأسها وأبعدت ناظريها عن المقتول ونقلتْهما إلى «عربي»، دقيقةٌ مرّت وهي تتيه في صفحةِ وجهه.. انتهت الدقيقة، ولمّا التقت عيناها بعينيه؛ صرختْ بأعلى صوتها، جفلَ من فعلها ثمّ ربَتَ عليها، روّضها، حدّثها.. لا زالت تصرخ، أخرجَ ضجيجُها الجميعَ من صدمتهِ، علَت الهمهماتُ بينهم..

- يجب أن تتوقف..

- لو سمعوها لعادوا...

- ربما قتلوها..

– ليقتلوها..

– المهم أن لا يقتلونا معها..

– ليخرسها أحد..

صمتُها لم يعدِ اختيارًا، بل هو دليلٌ على الانْهيار، أول فعلٍ يناسبُ الحدث، لا أدري لِمَ لا يصرخ الجميع؟! لِمَ أنا وحدي أشارك الفتاةَ صراخها؟! ربما ليس بصوتي لكنْ من استطاع الوصولَ لمحركاتي لوجد لها عجيجًا وعويلًا!

حدَث ما يخشاه الحضور... عادَ الضخم؛

توقّفت الهمسات، خشعتِ النّظرات، سكتتِ الزّفرات، إلّا صراخ الفتاة، لا زال يدوّي بلا انتهاء وبلا حاجةٍ للهواء، يكاد صريخُها يذهب بروحِها، التفَتَ «عربي» خلفَه فرأى القاتل يُقبِلُ وأنفُه ترعف على الفتاةِ غضبًا؛ فأيقَن أنّ هلاكَ «سميّة» قادمٌ لا محالة، ارتعشتْ يدُه، ابْيضّ وجهُه، ودونَ ثانية زائدةٍ رفع كفّه عاليًا، ثمّ نزل بها على وجهِ الفتاة؛ فسكنتْ مَغشيًا عليها، حينها خانتْهُ قدماه فهَوَى على قدميْها، ودونَ أنْ يراه أو يسمعَه غيري.. بكى ناقمًا، ساخطًا، ومعتذرًا!

زمجرَ الضّخمُ، وبكلّ ما أوتي من قوةٍ ركلَ «عربي» في ظهرهِ صائحًا:

– مَن أذِنَ لكَ بهذا؟

عندها أقبلَ أحدُ الرجال وهمسَ بأذنه.. «جاءت أوامرُ بتغيير الخطّة»، كُبِتَ الغضبُ داخل نفسِ الضخمِ، وقفلَ عائدًا إلى غرفةِ قيادتي، وهو يهتِف:

– إنِ اضطررتُ للمجيء إلى هنا ثانية بتلك الطريقة؛ فستكون نهايةَ الكل...

وقبلَ أن يعبرَ الباب تمامًا التفت إلى الجميع، وأضاف:

– فالعالم سيكون أفضلَ بالتأكيد إنْ قلّ عددُ الأيتام فيه.

اختفى أثرُ الضّخم وصحبِه، عاد الصمتُ إلى أنْ قطعه قائل:

– معه حقّ.. العالم أفضلُ دوننا.

– وأنا مَنِ اعتقدَ أنّ القدر بدأ يبتسم.

– لا أدري لِمَ ظننتُ أنّ المستقبلَ قد يحملُ لي مفاجأة سعيدة، ولو لمرّة..

– معكَ حقّ.. ما نحن إلّا مجموعة أيتام، وسنظل طوالَ عمرنا أيتامًا، ساكني الملاجئ قابلي الإحسان.

– وزِد عليه.. امسحْ على رؤوسنا؛ تأخذِ الحسنات، أطعمنا؛ تأخذِ الحسنات، لاعبنا؛ تأخذِ الحسنات؛ حتى لم أعدْ أعرفُ هل هناك مَن يفعل شيئًا لأجلنا بحقٍّ أمْ أننا فقط وجهٌ من وجوه القربى إلى الله!؟

- إذًا نرضى بالخرس، أو يصبحُ مصيرنا نفسَ مصير المشرف الخائن؟

- وماذا فعل المشرفُ لتطلق عليه وصفَ خائن؟

- أجل.. ماذا فعَل؟ مجرّد أنّه أرادَ الحياة! رأى فرصة؛ فاغْتنَمَها!

- هل تنتظِر منه أن يضيّع حياتَه لأجل أشخاص لا يعرفهم!؟

- لا أحد يستحقّ أن أضيّع روحي لأجلِه.

- لو أنا؛ لفعلتُ مثلَه.

- وأنا..

- وأنا.

هكذا تطايرتِ الكلمات من اليمين والشمال، وضحَتِ القناعات، اجتمعتِ الآراء، وتفرّقت القلوب. الأقدام تهتزّ بأرضي، والأيدي تلتمسُ في حائطي الأمانَ، يخشون الاعترافَ بخوفهم واحتياجهم، وحدي مَن أسمع نبضاتِ صدورهم الفزعة وهي تصرخ تطلبُ النجاة، ولو أنّ الأمر باختياري لأذهبتُ عنهم الأذى، ولضممْتُهم إلى أركاني وحفظْتُهم فيها، لكنّ الله قدّر لي الرؤية والسمعَ فقط، فلا تدخّل إذًا بحياةِ الإنسان. أثِقُ أنّ هناك يومًا ستكون به قيامة.. قيامةٌ لأصحاب الأحزان والآلام، وحينها سينادينى الله لأشهدَ على ذاك القاتل وذا المقتول؛ فأحكي ما حدثَ بقلبي وما رأته

أركاني، أثِق أنّي حينها سأتكلّم دون شفاهٍ، وأوقِن أنّ الله وحده سيسمعُني.. وكفى بهِ سميعًا.

بكى «عربي» وكأنه يقتلُ الدموع وينحرُها على قدميها، ثمّ اعتدل إليها، وجلس بينها وبين حائطي مُلتصقًا بها غير عابئ بشذوذِ موضعِه، وغرابةِ جلسته، غضبت بعضُ النفوس واستنكرت، أمالَ رأسَها على كتفهِ ومسحَ بمنديلهِ دموعًا متيبّسات على وجنتيْها، لم يختفِ الدمعُ ولم يبتلّ منديلُه! فقد تحجّرت العبراتُ منذ أن سكنَ الصراخ، مُجبرةً أفسحَت «رحمة» قليلًا ليجدَ فُسحة لـ «سميّة» ولنفسه. بغضبٍ مكتوم عاتب المشرف المسئول عن الفتاتين «عربي» ينهاه عن فعلِه الطائش، لكنّ الأخيرَ لم يسمع، فقط أسندَ رأسَه على رأسها المستريحة على كتفِه، وهمس همسًا لا يكفي لُيسمِع أحدًا..

– وعدوني أنّي سأراكِ قبلَ المنام.. وسأسمعُ لحنَكِ.. «نام يا عربي نام»!

وفي كلّ يومٍ يملأ صراخي المكان.. لا أنام، لم أنَمْ، لن أنام، حتى أسقط من الآلام، ولا زال الوعدُ يتجدّد!

لم يكن هناكَ أصعبُ من غيابك، للمرة الأولى أجدُ نفسي دونك، انطفأت بداخلي شموس الحياةِ كلّها، وحلّ الليل مُعتمًا!

سمعتُ مرةً أن بالليلِ ينزل الله للدنيا؛ فسهرتُ للفجرِ وتمنيتُ أن ينام الناسُ كلّهم حتى يسمعَني أنا فقط، ثمّ دعوتُ.. ودعوتُ.. ودعوتُ، فلم ألقاكِ، ولا زال الوعدُ يتجدد!

كلّما اشتقتُ إليكِ قاتلتني فيكِ الضلوع؛ فأنتظر للفجرِ وأتنهّدكِ مع النداءِ حنينًا، ثمّ أصلّي بلا فاتحةٍ ولا تشهّد، فقط لأسجد.. وبكلِّ سجدة؛ أحمّلكِ لله أمانة، ولا زال الوعدُ يتجدّد!

يئستُ مِن الصلاة والدّعاء والوعد، فهربتُ وعدتُ إلى هناك؛ حيث كنتِ وكنتُ؛ فلم أجدكِ ولم أجدني!

فقط خيالًا كان يتنقّل يومًا بالأرْجاء، نظرتُ إلى السّماءِ وعاتبتها، ناديتُ.. «أينَ سمية يا الله؟! أينَ سميّة يا الله؟! أينَ سميّة يا الله!»

ولّما جنَّ الليل؛ تركتُ مصابيحَ الأمل وعدتُ إلى الدارِ، نظرتُ للمرآة.. طفلُ السابعة صار بالسابعةِ عشر، عشر سنواتٍ ولا زلتُ أنتظرُ اللقاء!

أيقنتُ أخيرًا أنّنا افترقنا ولا سبيلَ للاجتماع، وما عدتُ أنتظرُ تحقيق الوعد!

الأشقياءُ في الدنيا كثير، لكنّ شقاءً يُشبه ما أسرّ به «عربي» إلى «سميّة» لم أسمعْ من قبل!

تنقّلت أنظارُ «أبو ليلى» بالأرْجاء، تكاثرتْ على وجهه الهُموم، صار جليًّا قلّة حيلتِه وذهاب قوّته، همس لأقربِ الجالسين إليه، وقد كان الفتى «القطريّ»، سأله عن خبيئةٍ تفيدهم في حالهم، تنقّل السؤال بالأرجاءِ، لكنْ لا إجابة مفيدة، عاد الصّمت ضيفًا داخل قلبي وبغرفة قيادتي احتدّ النقاش، وكجرسٍ غاضبٍ رنّ الضخم:

- لا أحبّ التعديل بالخطط.

سأل أحدُ الرجال:

- لا أدري سببَ غضبك، أليستُ الخطة في النهاية هي قتل الجميع؟ فما الذي تغيّر؟

- أنا رجل منظّم أحبّ التخطيط وضبط وقت لكلّ فعل، التصرفات العشوائية تُفسِد أي عمل ناجح.

انفلتَت نظرةٌ ساخرة من عينِ الطيّار بسبب جُملة الضخم، التفّ على إثرها الأخيرُ إليه رافعًا حديدتَه وقبل أن ينزل بها على جسدِه صرخ به أحدُ الرجال ناهيًا وناصحًا:

- هل جُننتَ؟! ومَن سيقود الطائرة إنْ قتلتَه؟

توتّر وجْه الرجلان الآخران، ازدادَ احمرارُ وجهه الضخم، أضاف الرجلُ الناصح آمرًا:

- ابقِ غضبكَ لنفسِكَ حتى ننتهي من العمل، وابدَأ في تجهيز خطة للخروجِ من هنا.

ظهرَ الذعرُ على وجهِ الرجلين، وباتَ جليًّا احتدامُ الموقف داخل الغرفة، أمّا بخارجها فقد استيقظتْ «سمية»، ولمّا تنبّهت لحالها وهمّت بالصراخِ؛ وضعَ «عربي» يدَه على فمها ليسكتها، خرجت صرختُها مكتومةً وهي تدفع بالأخير عنها، ثمّ تفلتتْ منها الحروف، وسألته بكلّ ما أوتيت من غضب:

– مَن أنتَ؟ وماذا تفعل؟

تجسّدت الإجابةُ على شفتي «عربي»، وبدا أنه سيتحدّث ويقاتل اعتراضَها بالكلمات، لكنه وأد أحرفَه قبل خروجها، وأغلق فمه، ثمّ قام من مكانهِ مُعتذِرًا.

فُتِح بابُ غرفة قيادتي، وخرج الضّخم دافعًا أمامَه الناصِح وقد تقطّعت أنفاسُه غضبًا، والدمُ يثور على وجههِ صائحًا:

– ألم أُحذّركَ مِن استخدامِ تلك النبرةِ الآمرة معي؟

تجرّع الرجلُ غصصَ الندم، وصوتُه يأتي متحشرجًا:

– أعلمُ أنكَ غاضِب.. أنا لم أقصدْ أبدًا ذلك، صدّقني لقد خانتني الكلمات.

تدخّل الرجلان الآخران وفرّقا بينهما، حيلَ بين الغاضب والناصح، ولم يعدْ بإمكان الأول الظفرَ بالثاني، وجدَ الضّخم أنّ ثورته لا زالت تتأجّج ولا سبيل لإطفائها، لَمَحَ بركنٍ ذا الذي لم يعدْ لمجلسه بعْدُ؛ فجذبه وقذفه، ثمّ أخرج حديدتَه متأهبًا... فقد حضرَ الموت!

وللمرةِ الأخيرة.. رفع «عربي» وجههُ الأسمر؛ حيث «سميّة» ثمّ تبسّم راضيًا:

– لا بأس، فقد تحقّق الوعد.

***

الأرض، عام ٢٠١٧

أقدامٌ أخرى أكثرُ طاقة، تشي بخفّة أحمالٍ وظلالِ رشاقة، يتعاركون لشأنٍ صغيرٍ، وتفوح مِن آثارهم بعضُ الحقارة! ثمّ أتى بعدَهم فوج قليلٌ، كثيرُ الكلام، عظيمُ العبارة، لهُمْ ضجيجٌ إذا حلّ ضحكٌ، ويشحّ فيهم عطرُ الوَضاعة!

الأوّلون وصلوا لأرضٍ، والآخرونَ حلّوا بأرضٍ، وفي كلا الطريقيْن يسْمو التضاد! فعبرَ السابقون أبوابَ التحايا، وركنوا إلى ما رأوا مِن بريق الحنايا؛ فاختفى أثرُهم بمغامراتِ المعاني وصوتِ الأغاني، أمّا الآخرون فنصبوا خيامًا وزاروا أهلهم فوجدوهم نيامًا..

قال أثقلُهم قدمًا:

- ثلاثُ خيام..

أتى صوتٌ آخر:

- حسنًا، الفتاتان بواحدة.

عاد الصوتُ الأوّل:

- وأنا بواحدة..

اعترض واحد:

- لا تمزح.. كلّ اثنين بخيمة.

تهكّم الصوتُ الأوّل:

- لا أحبّ النوم مع أحدٍ، بالإضافة إلى أنّي أكبركم.

هنا، أتى صوت فتاةٍ حادّ:

- توقّف عن المزاح، لا وقتَ لهذا يا....

بحزمٍ قاطعها الصوتُ الأوّل:

- تذكّري الاتّفاق.

- اتفاقٌ سخيف.

- لا ليس سخيفًا، لقد وافقتُ على المجيء لهذه القرية بعد إصرارِكم على خوْضِنا معًا هذه الرّحلة، وأنتم وافقتُم على تسمياتي لكم.

- لا أصدق حقًّا أنّك تُريد أن تُطلق علينا أسماء سيارات!!

- وأنا لا زلتُ لم أستوعبْ هذا التفكير!!

- لا يهمّني.. هذا شرطي، بالإضافةِ إلى أنني أحترم هواياتكم.. فلمّا لا أجدُ منكم نفسَ الفعل؟

- يا أخي لا وجْه للمقارنة، فأنا أحبّ الرسم.. فماذا يوجدُ بالرسمِ ليُكره؟!

- حسنًا حسنًا.. لا حاجةَ للجدالِ، العهد.. عهدٌ، ما قولكم؟

علا صوتُ فتاةٍ ساخط:

- لا أملَ فيك.. أنتَ أكبرُنا لكنْ لستَ أعقلنا أبدًا.

اهتزّ صوته عند إجابتِها؛ أخفى أثرَ رجفته، لكنّي عرفتُها وهو يردّ مُدّعيًا الثقة:

- لا يهمّني رأيك.. المهمّ الاتفاق.

أجابته بغضبٍ مَكتوم:

- حسنًا.. أيها الـــ «لامبورجيني».

عاد صوتُه إليها ضاحكًا:

- أشكركِ «مرسيدس».

ضربتْ بقدمها فوقي اعتراضًا، لكنْ لم تضرب بلسانها أيّ كلام، أكملَ هو بلا مُبالاة:

- إذًا.. «مرسيدس» وأختي الصغيرة «بورش» بالخيمة الثانية.

تحرّكتْ أربعة أقدام باتّجاه الخيمة، نادى صوت:

– أسرِعْ يا «لامبورجيني»؛ فأنا أريدُ النوم.

– حسنًا.. تفضّل يا «كاديلاك» وخذْ معكَ «چجوار» أيضًا إلى الخيمة الثالثة.

هتفَ مُعترضًا:

– «كاديلاك»! أنا «كاديلاك» وأنت «لامبورجيني».. أدهشني تواضعُكَ يا رجل!!

– كفاكَ عطلة.. فالاتفاقُ اتفاقٌ.

تحرّكت أقدامٌ ثقيلة إلى موضعِ الخيمة الثالثة، تبعتها أقدامٌ أقل ثِقلًا، عاد صوتُ أكبرهم وهو يسير بخطواتٍ سريعات:

– لم يبقَ إلّا أنا وأنتَ يا صديقي «فراري»، وقبل أن تعترضَ أُحبّ أن أُذكّرك بمخزونِ أسماء السيارات الصينية الذي أحفظُه.

سارتْ معه قدمين بخطواتٍ أسرعَ منه ونبت حِسّ:

– لا يهمّني الاسْم، فمهْما ناديتني أنتَ.. اسمي الحقيقي عند الله مكتوب.

الآنَ ضرب أكبرُهم فوقي معترضًا هاتفًا:

– ألن تتوقّف عن أسلوبِ التقريع هذا أبدًا؟ كلّ مزحة طيبة تقلبها أنتَ لذنبٍ كبير..

- إذًا خفْ مني.. فربما أنا صوتُ الضمير.

- لا، بل أنتَ «فراري».. هيا تحرّك.

استقرّ كلّ واحدٍ منهم بالخيمة المُقدّرة له، أتى حديثُ الفتاتين..

- أكبرنا سنًّا لكنّه أقلنا عقلًا! أخوكِ هذا لا يُطاق.

ضحكٌ مُتقطّع، علا داخلَ الخيمة تَبِعه صوتٌ ضعيفُ النّبرة كثيرُ الحركة:

- إنْ كان هذا شعوركِ وأنتِ باستطاعتك الاعتراض عليه.. والفارقُ العمري بينكما عامٌ واحد، فتخيّلي حالي وأنا أصغره بثلاثةِ أعوام، أعيشُ معه ليلَ نهار؛ ولا أملك الحقّ في أي اعتراض، صدّقيني أنتِ بنعمةٍ أمّا أنا فأحيا داخل فيلمٍ رعب!

معَ نهاية الكلمات، صدحتِ الخيمة بضحكاتٍ صاخباتٍ، أمّا بالخيمةِ الثالثة فحسّ من غضبٍ شبّ داخلها:

- «چجوار»!

- «كاديلاك»!

- لا أملَ بذلك الأحمق أبدًا، لماذا وافقْنا على اتفاقهِ السخيف هذا؟

- لأنّه أكبرنا..

– وماذا في هذا؟ الفرقُ بيننا وبينه عامان لا أكثر، وكلانا حصّلنا نفسَ المهارات والتقييمات التي نالها هو!!

– لا أظنّكَ تنسى أنّ وفاة والده جعلَت له مكانة عند أعمامنا وعمّاتنا!

– هذا ما يصبّرني عليه يا رجل، ولولا أنّنا احتجناه ليحدّثهم في شأن فرصةِ العمل والترقية؛ والله لما كنتُ ذهبتُ إليه.

– اهدأ.. هوّن عليكَ، هو لم يضربْنا لنقبل شرطَه، أنتَ تعرفُه كثير المزاح؛ لهذا اختار تلكَ الأسماء، فقط من باب الضحك.

– أعلم، لكنّه تعمّد أن يختارَ لي ولكَ أسماءَ سيئة.

– أتظنّ هذا؟! لقد خِفتُ يا رجلُ أن يسمّيني اسمًا أنثويًّا.. كـــ «أورورا» تلكَ السيارة البلاستيك من عام ألفٍ وتسعمائة وسبعة وخمسين.

ضحك الآخرُ بقوّة هاتفًا:

– لاااا، الحمدُ لله على «چجوار» و «كاديلاك» إذًا...

وبخيمةِ كبيرهم قال أصغرُهما:

– لنْ أسألك عن سرّ شرطِك بتبديل أسمائنا، ولا عنْ تضخيمكَ الأمر لدرجةِ أنْ تمضينا على عقدٍ تشترطُ علينا فيه هذه الأسماء! لكنّ ما يحيرني هو تعلّقك هذا بالسياراتِ مع أنّك لا تمتلك أي سيارة!

ضحكَ الآخر، ثمّ أجاب:

– أنا لا أحبّ السيارات بالطريقة التي تعتقدُها، بل أظنّني لن أشتري واحدة أبدًا، وسأكتفي بالدراجة.

– أتريد بثّ الجنون برأسي يا عـــــــ.. ؟!

قاطعه الأكبرُ زاعقًا:

– الاتّفاق!!

– حسنًا. نسيتُ، لماذا هذا الشرط العقيم إذًا يا «لامبورجيني»؟

– لأنكم تحتاجون إليه.

– لم أفهم؟

– تفتقدون تلك المزحة التي تعدل كفّة الأحمال.. وأنا أوفّرها لكم.

– ولماذا أسماء السيارات؟

– لأني لا أحفظُ أسماء الأدوية.

– ماذا تعني؟

– أعني أنّه لا يهمّني تفاصيل المزحة، المهم أن هناك واحدة.

– كلّ هذا لتمزح؟!

- بل كلّ هذا لتخرج منكم البسمة.. أتعلم أنّ الضحك يُعد أكثر الذكريات استمرارًا؟ وأنّ كل مهامِّنا وسفراتنا وجلساتنا.. كلّ شيء سيتلاشى مِن عقولنا مع الزمن! لكنّ ما علق بالقلب سيبقى، ولا يوجدُ شيء أكثر قوة وتشبّث بالحياة سوى السعادة؛ لهذا ستعلق بالقلبِ رافضة الرّحيل.

- ما دامتْ نيتكَ طيّبة؛ فاخلع عنّا إذًا هذا الشرطَ وحرّرنا من سطوته.

- ألم تفهمْ بعد يا «فراري»؟! شئتم أمْ أبيتم.. سأزرعُ بعقولكم الذّكريات؛ لذا لا تحاول محادثتي بالأمر، أثقُ أنّ كلًّا منكم لا يدري أيّ شيء عن معنى افتقاد السعادة.

- ومَن قال هذا؟ نعلم أنّ الله خلق الفرحَ وخلق الحُزن، خلقَ الضّحك والبكاء...

- ليس هذا ما قصدتُه، ما عنيتُه هو أنْ لا أحد منكم يعرفُ معنى استغلال الحياة لصنعِ البهجة! فالأعمارُ لا تُحسَب إلّا بعددِ لحظاتِ السعادة فيها.

- فسّر ولا تُعسّر يا رجل!

- بكلّ بساطة.. حياتنا كلّها مضغوطة؛ واجبات، تحديات، مسئوليات، وهذه رحلةٌ ترفيهية.. أليس كذلك! وأنا نصبتُ نفسي عنصر الترفيه.

- ما هذا الهر.......

– تعني العبث! أنا لا أعبث بكم ولا معكم، أنا فقط أشتاق للذكريات السعيدة، وأعلم أنكم ستشتاقون إليها يومًا ما.

– يمكننا بناء ذكريات سعيدة من غير مذلّة أسماء السيارات.

– ومن أين تخرج المتعة إذًا!؟

– لكن.....

– «فيرااااااااري».. نَم!

انتهى الجدالُ أخيرًا، هذان الأخيران كانا سببًا في كثيرٍ من الضجيج! قلوبُ الشباب فارغة حقًّا هذه الأيام!

نقاشاتٌ لا تُسمن ولا تُغني...

ثُمّ بأنحاء أخرى، وببقعةٍ أخرى، ومع نفوسٍ أخرى، تجلجلُ نقاشاتٌ.. المآسي بها تسري! دقٌّ قويٌّ، قرعٌ على الأبوابِ والنوافذ، صريخٌ هادر، وصفعٌ غادِر!

زَعقَ زاعِق....

– أينَ «حسن»؟

بصوتٍ يتقطّع من تزاحُم الأنفاس فيه؛ أجابَ صوت عجوز:

– والله لا نعرف له طريقًا.. مُختفٍ من يومين!

فُتِحَ الباب من إثرِ الضرباتِ عليه، أسرعتِ الأقدام عابرةً منه حتى وقفت بركنٍ قريب، والصوتُ يعود ثانية:

– زفافه غدًا ولا تعرفون طريقه! هل أنا بهذه الحماقة حتى أُصدّق؟!

– لم أقصد، لكنّه حقًّا غائب.

تحرّكَت بعضُ الأقدام باتجاهٍ ما، وخرج صوتٌ:

– «رُمّانة» هو اسمك.. أليس كذلك؟

لم تُجِب؛ فقال:

– أخبريني أيَّتها العروس عن مكانِه، ولن أُعاقبه هذه المرة.. لأجلكِ.

فعادتْ قدمٌ مُرتجِفة إلى الوراء تبِعتها أخرى، والكلام يستمرّ:

– إذًا؛ ما قولكِ أيّتها الـــ «رُمّانة».. هل «حسن» بالجوار؟

سادَ الصمتُ إلّا مِن ضجيج الأنفس الواجفة، اقتربتْ أقدام الزاعقِ من أقدام الخائفة، التصقَت الأقدام؛ فشهِقَتِ العروسُ، تحرّكت محاولة الفكاك، لكنّ الزاعق قد أحكمَ قبضته حتى أوجعَها؛ فظهر صوتُ بكائها، واحتدّ حسُّ أنينها، طالت وقفته، وازدادت رجفةُ جسدها، أخيرًا تحرّكت الأقدام مُبتعدة؛ فسقطتْ هي أرضًا لاهثةً ومُرتعبة، من بعيدٍ أتى صوته مُحذِّرًا ومُتوعدًا:

- سأعود.. وسأجده.

لم يُجبه أحد.. فقط الخوف، ظهرتْ رائحته؛ فأغلقت العجوزُ الباب قبل أن تحضر الكلاب!

حمحمَتِ العروسُ وهي تبكي:

- أين «حسن» يا «عمّة»؟

- والله يا «رُمّانة» ما أدري.

- رحلَ وتركني يا «عمّة»!!

- كيف يترك قلبَه يا بنتي؟!

- غدًا الزفاف، وإنْ لم يحضر؛ فسننتظر عامًا كاملًا!

- وإن حضر؛ قتلوه يا بنتي.

- لاااا، الله لا يفرق بيننا أبدًا!

بهذا المكان المنبوذ، المخفي وسط الجبال والصخور.. لطالما قامتْ قيامة الأحزان، من حينٍ إلى حين أسمع بهذه البُقعة صوتَ الأنين وهمسَ الحنين. هنالك تبكي الباكيات، وتنوح النائحات، فالأيام لا تمرّ فيهم إلّا بخسائرَ عديدة وآلامٍ جديدة.

وكم سمعتُ من دعاءٍ في الليالي، بكلماتٍ طويلة ونفوسٍ ذليلة، ثمّ تسير

من فوقي الكثير من الأقدام حتى تصل إلى التلال ؛ فتتقي بها الأجساد بجانبِ الأجساد من بطش الرائحين والقادمين والعابثين؛ فلا تقيهم! فيهرولون إلى أركانٍ من قلبي تحوي منافذ تنفد إلى أجزاءٍ مني بعيدة ومخفية؛ فيفرّون إليها فرارَ النار من الماء؛ فلا تحميهم!

حينها تمرّ مواكبُ كبيرة من خيلٍ وسياراتٍ وأقدام كثيرة، يمشون بين النّاس مُختالين فرحين، أجد من مشيتهم ذلك الكِبر، وكأنّ أرواحَهم تنظر إلى مَن حولهم نظرة المولى إلى مولاه الذي ملك ولاءه بمالهِ، واستعبده بفضلهِ وإحسانهِ.

ويتفاقم الفُجرُ فيهم؛ حتى لتفرّ الحيواناتُ مِن بطشهم وعذابهم، وها هي «أمّ حسن» هائمة في الطرقِ تُسائل الغَادِينَ والرّائحين ما فعلَ العابثونَ بولدها؟ ولا تزال تسأل حتى ارتحلَ سوادُ ليلها، كذا انصرف بعضٌ مِن بياض نهارها؛ فعادت إلى بيتها بخطواتٍ واهناتٍ عاجزات!

***

«أمّا قبلُّ»

وقف أمامَ الغرفة التي وُضِعَت بها يرتجف، كالطفلِ الصغير يراها، وكلّما وقعتْ عيناها عليه؛ يختبئ! بعضُ قلبه يرقدُ بالداخل، والبعضُ الآخر يعتصرُ رعبًا داخله، يجبُ أن يستجمعَ شجاعته، وقفَ أمامه الطبيبُ يُحدّثه:

– مستحيلٌ أن ينجو حملَها مِن تلك الحادثة، الصدمةُ قوية، وأجزاءٌ من الحديد اخترقت جسدَها..

لازال «إسماعيل» يستمعُ إلَى الطبيبِ وهو يَنقِل إليه خبرَ زوجته، في جُملةِ النظرِ إليهِ ترى شبحًا من الشّوق المؤلم، ذلك الذي يلهِب الدّم، ظلّ واقفًا أمامَ باب غرفتها يخشى الدّخول، لكنّ يدَه لم تنتظِر من عقلهِ إذنًا، وصلَت للمقبضِ وأدارَتْه؛ فانفتَح.

على سريرِها مُستلقية تُجهّز للعمليات، نظرتْ إلَى حالِه؛ فصاحت وكانَ صياحُها همسًا:

– لَمْ يجِب عليّ النزول أبدًا.. لِمَ لَمْ أستمعْ إليك يا «إسماعيل»؟

لَمْ يستَطِع كبحَ جِماح عينِه؛ فهطَل منها السّيل، أشارتْ إليه ليُقبل عِندَها؛ فتلقّف يدَها بين يديه وضمَّها إلى صدْره ضمّةً جمَع فيها مِن العتابِ والشوق ما جمَع، ثمّ زفَرَ زفرَة نفخَ فيها مِن الألم والخوف ما نفَخ، حدّثها بهمسٍ:

– أنتِ بخير.. لا تقلقي.

أشارَت إلى بطنِها، وسألت:

– ابننا؟

حرّكَ رأسه نافيًا بأسى وقهرٍ لا يعرفهُ غير الرّجال.

شهقَت بقوةٍ؛ فزع صارخًا، علِمَت هي من ألمِها ما لم يعلَمَه هو؛ همسَت مُعتذِرة:

– وصيّتي لك.. أن لا تتوقّف عن المساعدة أبدًا..

– توقّفي عن هذا الهراء.. أنتِ بخير.

– اسمَعني مِن فضلك.. غيّر الاسم؛ فأنت لا تحتاج لـ «نور»، بل تحتاجُ لفراشتك الصغيرة، لا تجعل ذلك الخير يتوقّف معي.. استمرّ يا «إسماعيل».

صدَمَه حديثُها، مسَح على رأسِها برفقٍ وهو ينهاها هامِسًا:

– نتحدّث بعدما تخرجينَ من العمليات.. لا ترُهقي نفسكِ بالحديث الآن يا «نُور».

بإصرارٍ همْهَمت:

– بل الآن.

مسح وجهَه بظهرِ كفّه كالأطفالِ وهو يهمسُ لها:

- سأفعلُ كلّ ما اتّفقنا عليه، وسأنشئ لنا بكلّ الدول فروعًا كبيرة حتى يعرفَ العالم أنّ أبوابنا ملجأ لكلّ مهموم..

سكتَ وهو يُخفي فمَه المُرتعِش بيديه، فهمسَت:

- وماذا أيضًا؟

- سأكونُ أكثر رحمة.. وسأشترطُ بكلّ الموظفين أن يكونوا أكثرَ رحمة، سأحيي الرحمةَ بقلب الليل وأقلبُه نهارًا.. سأقلبُه نورًا.. سأجعله مثلَكِ في النقاء..

أمسَكَتْه من طرفِ مِعطفِه وهي تجذبُه إليها بضعفٍ، وتضيفُ بصوتٍ أشدّ ضعفًا:

- اجْعلِ العالم يرى الحلمَ بعينكَ أنتَ..

ثمّ أشارتْ إلى قلبِه وهي تُكمِل:

- فما أجودَها مِن عَين!

***

الطائرة، عام ١٩٩٥

لم تعدِ السّماءُ سماءً ولا الهواءُ هَواء، تلوّث كل شيء.. هكذا رأيتُ الأرْكان وقدْ تبدّل لونُها وتعكّر طهرُها، «المصري» يجلس أرضًا ينتظرُ القتل بلا جُرم، والقاتلُ فقط إنسانٌ يتجبّر على إنسان!

لم يفقِ الشبابُ بعد، لم تعترفْ «سميّة» بعد، لم يعترضْ «أبو ليلى» بعد.. بعد.. بعد، الخوفُ يتجلّى على الوجوه، والخوفُ من الموتِ موت؛ إذًا.. ماتَ الحضور!!

رفعَ الضّخمُ حديدته؛ فشخصتِ الأبصارُ إليه، عالقةً بين يديه، لكني لمحتُ بعينيْه لمعةً من شرر، تبحثُ عن الضّرر، وقبل أن ينزلَ على «عربي».. عاد بجسدِه إلى الخلفِ قليلًا، وتهكّم:

- هذه مَن كنتَ تنظرُ إليها؟!

وجذبَ «رحمة» مِن حجابها، وأوقفها أمامَ الجميع مازحًا:

- هل نشأتْ قصّة حبّ هنا وأنا لا أدري؟

هل أخطأ الضّخمُ بتلكَ السهولة بين الفتاتين؟!

اعترضَ «عربي» وهبّ إليه يستجديه الرّحمة بـ «رحمة»، والفتاةُ تقفز بين يديه ضعفًا ورعبًا، تصرخ نظراتها طلبًا للمساعدة، تمدّ يدَها عبثًا لتُجيبها

أيّ يدٍ وترحمها أيّ يدٍ، شفتاها ترتعد، أرجلُها تتخبّط، و»المصري» لا زال يكافحُ بتخليصها، لماذا لم يخبرْه أنّه أخطأ بالفتاةِ وأنّ هذه ليست المقصودة؟ لماذا يعترضُ فقط على قتلِها، وليس إيضاح الخطأ فيها؟ لماذا لم يجذبْ «سميّة» ويصرخ.. «هذه هي مَن نظرتُ إليها»؟

هل حقًّا الأرواحُ تتفاوت في الأهمية؟!

أمسكَها الضّخمُ وضيّق عليها أنفاسَها، ويدُ «عربي» تحاول عبثًا فكّ الخناق، و»رحمة» تلهثُ بلا هواء، همَّ شابٌّ بالوقوف، واثنان بالنداءِ، وثلاثة بالاستجداءِ.. تجمّع الهلع في اعترافِ «سمية»:

- أنا مَن كان ينظرُ إليها.

ضحكَ الضّخمُ وهو يرى رفقاءه الثلاثة يُقبلون على كلّ مَن همّ بالدفاعِ ويكيلون لهم الضربات، نزفت بعضُ الأنوف وكُسِرَت بعضُ الكفوف..

انعدمَت الآمال، وانقطعتْ أنفاس «رحمة» بين يدي الضّخم، ولا زال «عربي» يحاول تخليصَها، و»سمية» تقسمُ بغليظِ الأيْمان أنّ «رحمة» مِن النظرة بريئة!

حضرَ ملكُ الموت، آاهٍ يا رسولَ الأحزان..

ظننتُكَ تأخذ الأرواحَ نيامًا!

فأجاب.. بل آخذُهم سهامًا..

سهامُ القدر إليهم نافذةٌ جهارًا نهارًا!

انتبَه القاتلُ لغيابِ «أبو ليلى»؛ فأرقَلَ لغرفةِ قيادتي، ووجدَ بها ضالتَه، وبكلِّ طاقتِه أمسك جهازَ الاتصال وضربَ به على رأسِه حتى أدْماها؛ فسقطَ أرضًا بلا حراك.

أمّا بالخارج، فقد زاد عددُ القتلى، وانضمّت «رحمة» للأمْوات!

بحدَقتينِ مُتضرّعتينِ وأصابع مُرْتعشة تحسّست «سميّة» صدرَ رفيقتها، توسّلت قلبَها أن يعود، أن ينبضَ ثانية، أنْ تفتح عيونَها العسلية، أن تحرّك شفتيْها ببسمةٍ عبثيّة.. أي شيء، فقط تعود!

لم تُفلِحْ همساتُ «عربي» أن تطوي الوجعَ داخل صدرها، أو توقِفَ نداءها، فتقهقرَ للخلفِ وبقيتْ هي.. تضمّها وتشمّها، امتلأتْ أرضي بالأجسادِ الساكنة، وحمل هوائي بعضَ العبرات الغاضبة، تنقّلت الهمسات.

- لم تستحقّ الموت.

- كانت بالمكانِ الخاطئ في الوقتِ الخاطئ.

سمعَهم أحدُ الرّجالِ، فصحّح شامتًا:

- كلّكم بالمكانِ الخاطئ.

وكأنّما هدّ بجُملتِه جبالَ الأملِ؛ فظهرَ الذّعرُ على وجه كلّ الحضور. أنا هو المكان! لكني لم أكنْ يومًا سببًا بخطأ أو خُذلان، ليتَ لي صوتًا فأهتفُ... أنتم أصلُ الخطأ.. أنتم أصلُ الخطأ.

تجمّع الأربعة مِن جديدٍ في غرفةِ القيادة، لاحتِ التفاتةٌ من أحدهم، فرأى جهازَ الاتصال مهشّمًا، سأل وقد أكلَ الغضبُ قلبَه:

– ماذا سنفعلُ الآن؟ وكيف سنعلم..

قاطعَه الضّخمُ:

– ماذا بقيَ لنعلمه؟ الأوامرُ الأخيرة جاءت واضحة.. «التخلّص من الجميع».

هتفَ به أحدُهم:

– لم يكنْ عليكَ تدمير وسيلتنا الوحيدة للاتّصال، أحيانًا تتصرّف كالمج....

لمعَت عينا الضّخم، وهو يُزمجر:

– الأوامرُ جاءتْ بالتخلّصِ من الجميع؛ فلا تجعلني أضعَكَ معهم.

أنْهى جملتَه ووجّه حديثَه للطيّار:

– كمْ بقي على الوصولِ إلى مطارِ «الطور»؟

– ساعتان.

– حسنًا، كنْ جيدًا حتى النهايةِ، وسأكافؤك.

تنحنَحَ أحدُ الثلاثةِ وهو يسألُ الضخمَ:

– ما دُمنا سنقتلُ الجميع، لماذا استبدلتَ الفتى بالفتاةِ؟ لِمَ لَمْ تقتلهما معًا؟

ضحكَ الضّخم وقد ظهر الفخرُ على صوتِه:

– أردتُه أنْ يعلم أني قتلتها بدلًا منه.. تلكَ المعلومة ستقتلُه ألفَ مرّة وليس مرة واحدة فقط، وبهذا يكون موتُه أكثر مُتعة.

حركةٌ ضعيفة لقدمِ «أبو ليلى» نبّهَت الجميع أنّه لا زالَ حيًّا، أسرعَ إليهِ واحدٌ منهم وعاونَه على الاعتدال، أنفاسُه متقطّعة، والدمُ يفيض من رأسِه بلا انتهاء، تكادُ الظلمة تعتمُ على البقيّة الباقية من حياةٍ فيه، لكنّه لا زالَ يتشبّث بالوجود، لم يعدْ يتجلّد في نظراتِه ليبثّ فيهم القوة، فقط تتنقّل أنظارُه بين الوجوه، خرجتْ همهمةٌ منه:

– لم نقصدْ حدوث كلّ هذا..

اتجهتِ العيونُ إليه..

– جئنا بكُم لكي نصنعَ مستقبلًا معًا، لنغيّر كلّ شيء، أعتذرُ إليكم..

لم يُجبْه أحد، بعضُ النظراتِ تحمل اللّوم، وبعضُ الهمساتِ تحملُ الرأفة، وهناك مَن لا يحمل شيئًا، وهي عيونٌ لا زالت تقفُ على وجه «رحمة» تنتظرُ منها أن تعود!

بتيهٍ مُحتقنٍ كالنارِ التي تسكنُ أضلاعَ الأرض كانت «سميّة» تمضغُ أحزانها بصمتٍ.. فالميّت مَن ماتَ حزنه. وهي حزنُها لا زال باقيًا يتنفّس في صدرها.

ومِن بين العيون الناقمةِ علَا صوتٌ وهو يشير للخاطفين بطرفٍ خفي:

– كيف سمحتُم لهم بالصعود؟

أجاب «أبو ليلى»:

– والله تأكّدت الأوراق، وصدقتْ بياناتهم، لكنْ يبدو أن هناك خدعةً ما.. سامحنا يا بنيّ، والله ما قصدْنا إلّا الخير.

أشاح السائلُ بوجههِ بعيدًا وهو يكتمُ في نفسِه غضبًا قد ظهرَ على وجههِ الأحمر، أمّا آخر فلم يمسكْ طرفَ لسانه، وصوتُه يحمل سخطًا:

– كان يجبُ عليكم التأكّد أكثر..

صاحَ آخر.. وآخر.. وآخر...

– مع مَن هُم مثلنا لا تهتموا أبدًا بما يكفي.

– تُنكِر أنّ لأنَّنا أيتام؛ فلمْ تهتمّوا للأمرِ أكثر؟

– أجل.. يُتمنا سبّب كلّ شيء.

– ليتكُم ما أرسلتم الاخْتبار.

- ليتني ما أجبتُ الاخْتبار.

- ليتني لم أولَد يتيمًا.

ظلّ وجه «أبو ليلى» يحملُ نظرةَ الاعتذار حتى انتهت عباراتُ السّخط، بقي صامتًا، ينتظرُ معنى ما، لكنّ الكلمات لم تأتِ! فرسمَ نفحةً من بسمة، وكأنّما يُرسلُ بعثراتِ الورودِ على حِبال الرأي العام من حولِه، وقال بصوتٍ مُتقطّع:

- أنتُم لم تولدوا أيتامًا.. بل تحوّلتم إلى أيتام.

تظنّون أنّ مَن لا والدَ له يتيم! ومَن لا أمّ له يتيم!

لكِنّ الحقيقة أنّ... مَن لا وطنَ له يتيم، ومَن لا هدفَ له يتيم، ومَن لا إيمان بقلبِه يتيم، ومَن لا إله له يتيم...

كلّنا أيتامٌ يا أبنائي.. ألَا رحمة الله علينا!

سكتتِ الأصواتُ إنصاتًا لا اعتراضًا، وإشفاقًا لا اسْتكبارًا، أقبل «عربي» على «سميّة» ومدّ يدَه إلى كتفها، ونادى فيها كلّ المعاني الماضية:

- لقد انتظرتُكِ حتى لم أعُد أعرفني، لم أعدْ أعرفُ ذلك الـ «عربي» الذي يحيا دونَكِ، عودي؛ لأعُد!

لا زالت تصمتُ صمتَ الجاهل.. الذي تحملُ عيونه نظراتِ الفهْم، لكنّ قلبَه وعقله موطئ النّكران، تُحدّثُ نفسها...

«أنا مَن أصرّ عليها بالاشْتراك.. أنا مَن أحضرها!!»

تسيحُ في أوجاعها، أظلمَ وجهُ «عربي» لانصرافِها عنه، وأعتمتُ على إثر كلّ الأحزان..

هل يسعُ قلبي أن يحملَ كلّ هذه الآلام؟ كلّ هذه الآثام!

يا الله.. لم يعدْ بي مُتّسع!

السّماءُ الآن يحجب هداياها عنّي بابٌ ضخم موصَد، ينوء ذَوُو القوّة عن حملِه، تتداخلُ السّحب في أجنحَتي.. أكادُ أشهق بقربِها وأخبرها خبرَ قلبي، والوهنَ الذي يصيبُ حملي كلّه، لكنّها ودونَ علمِ تربتُ علي جدراني، وكأنّ التنّور الذي يشتعلُ داخلي قد ظهرَ دخّانه، وعلاً فورانُه فأقبلَ رفقاءُ الدّرب يبثّوني الصبرَ والجلد.

أحدُ الأربعة أخرجَ قطعًا سوداء مُتناثرة بين حقائبِه وملابسِه، مسّ الاضطرابُ أرْكاني مِن هذه القطع، أكادُ أميّز شكلَها وهدفها وخرابَها، لم أنتهِ من الظنِّ حتى أتمَّ الرجلُ تجميعَها وأسكنها راحته، ثمّ مدَّ يدَه فخرًا وسعادة بها إلى الضّخم.. الذي ما إنْ تسلّمها حتى ربتَ على ظهرِ الرّجل امْتنانًا واستحسانًا. عادَ النّاصح فيهم لنصحِه:

– مُسدس! داخل طائرة! أتريد أنْ تقتلنا معهم؟!

اختفى الامْتنان مِن على وجهِ الضّخم، وتجلّى الغضب نذيرًا لفعلةِ السوء؛ فأمسكَ الغاضب بالناصح وشدّ على ملابسِه حول عنقِه مُظهرًا أنيابه..

- ألم أحذّركَ من الكلام!

تعثّرتِ الأحرفُ على شفتي الناصح..

- للللـ كني لممم أعترررض...

وقبل أن تكتملَ جُملته، كان الضّخم يلتفّ حول جسدِه، ويقبض على عنقهِ بذراعيْه ثمّ يضغط بقوّةٍ، جحظَت عينا النّاصح، ويدُه تحاول عبثًا الفِكاك! توتّر الرجلان الآخران، لا يبدو أنّ أيّ منهما كان يتوقّع مثلَ هذا التصرّف من الضّخم، همَّ أحدُهما بالكلام مانعًا القاتلَ من قتلِه لكنّ إيماءة خوفٍ ونهيٍ من الرجل الآخر أوقفتْه عن ذلك التهوّرِ حتى لا يلحقَ بركبِ الأمْوات، ثلاثون ثانية.. ودوَت فرقعةٌ قوية من عنقِ الناصح؛ فتهدّل كتفاه وارْتخت يداه وأظلمتْ عيناه.. وبمجرّدِ أنْ فكّ الضّخمُ ذراعه عنه؛ تكوّم المقتول أرضًا!

علَا وجْهَ الضّخم نظرةُ العظمة! ألا يدري أنّ للعظمة بناءً لا يُقام إلّا من حبٍّ أو بغضاء! وأنّ بناءَه لا يزال ثابتًا شامخًا لا يتحلحلُ ما دام الاثنان لم يتغيّرا، فإذا ما طغى جزءها على جزئها، أو بغى بعضها على بعضها؛ سقطَ البناء وسقطت عظَمَته بسقوطها. وأنا لا أرى به غيرَ البُغض والكره؛ فلعلّ الله يعجّل بسقوطه ودمارِ بنائه.

- هل هناك اعتراض؟

هكذا سأل واثقًا حدّ الانتشاءِ أنْ لا استنكار سيصدحُ مِن أحدهما، سلّطَ على المُكوّم نظرَه، وأجاب سؤاله الذي سبق قتلَه:

- أسرعُ طريقة لقتلِ الجميع هي المسدس، أعلَم أنّ عدد الرصاصات لا يكفي.. لكني لا أحتاجُ إلّا إلى واحدةٍ أو اثنتين فقط لأقتل الجميع.

ما أقسَى الخرس! أنْ أكون الريح التي تحملُ الأصوات لا تصنع صوتها الخاص ولا ضجيجَها الخاص، ولا انتقامها الخاص!

لَمْ يبدُ على وجْهيهما الفهمُ، ولَمْ يبد على وجههِ الاكتراث، الحيرةُ تعمّ أركاني.. ما شروطُ القاتلِ والمقتول؟ الصالب والمصلوب؟ السّالب والمسْلوب؟ ثلاثُ زفراتٍ للروحِ اختلفت فيها الأسباب، واتفقت فيها النّهايات، كلّهم سيلقى الله، وسأشهدُ لهم وعليهم.

تمزّق قلبي بكثرةِ الآلام، فهُمْ إنْ فرّقهم قتلُ المشرف، لكنّ قتل «رحمة» جمعهم بذاتِ الأحزان، تتضَعْضع نفوسُ البعض وتتقلّب على نيران الفَقْد، هتفت «سميّة» بـ «عربي» غير آبهة مَن يسمع:

- «رحمة» أنتَ قاتلها.

ووسط انْدهاشه وصدمتِه.. سكتت! أطرقتْ برأسها دقيقة، ساكنةً لا تتحرّك ولا تزيد اتّهامها اتّهامًا آخر، سُمِعَ منها البكاء وبعضُ الضحكات،

ثمّ العبوس وشبح ابْتسامات، تبدّل حالها كثيرًا بتلك الثواني حتى ليظنّ بها الرائي الجنون!

وكأنّ الدقيقة أو يزيد قليلًا ذهبتْ بأفكارها كلّ مذهب؛ فبعدما بكتْ وضحكت، غضبتْ ورضيت، أمّلت ويئست.. رحَمت واسْترحمت، مسحتِ العبرات عنْ عيونها، ورفعت رأسَها إلى «عربي» الذي لا زال يتأرجحُ بين الذّنب والغفران، ووجهُه يعترفُ بفعلتهِ الأولى، همست:

- هانتْ عليهم؛ قتلوها كأنْ لم تكن! كيف سأكملُ الطريق بلا «رحمة»؟

ابتعدتْ عنه، لكنّه ما سمح لها بالرّحيل، اقتطع طريقَ هروبها منه وعادَ بها إليه، سألها بإصرار:

- لِمَ لا تعترفي أنكِ أنتِ.. وأنني أنا؟

دفعتْه بغضبٍ:

- لأنكَ لستَ أنتَ.. وأنا لَمْ أعدْ أنا.

فما إنْ سمع قولَها الذي يحوي التأكيد لا الإنكار، حتى ولو كان تأكيدًا يذبحُ مستقبلَ الغفران؛ حتى استطير فرحًا وأقبلَ على ضمّها، تمعّضت وجوه الحزانى واستنكروا فرحًا يسرق منهم كآبةَ الأحداث! فعَلَت الهمهماتُ والنكزات، دفعَت «سميّة» عنها تلك اللهفة التي أغرقَت ملابسها ووجهها وقلبها، اخشوشَنَ صوتها، وتجعّد جبينُها..

– أنا لم أعدْ تلك الصغيرة الضعيفة السّاذجة، أنا لستُ «سميّة» التي تنسى، بل أنا «سميّة» التي تذكرُ هجركَ لها، ابتعدْ يا «عربي» ولا تنادني .. فسُميّتكَ لا وجودَ لها.

ألحَّ عليها الاستماع:

– ومَن قال إنّي هجرتك!؟ والله ما فعلتُ، وعدوني بلقاء..

– وما نفّذوا الوعد! لا تفتعلِ الحجج، فأنتَ لم تتمسّك بما يكفي، لم تطلبْ بما يكفي.

– بل فعلتُ.. فعلتُ..

تخبّط صوتُه، وارتعشت أصابعه وهو يكشف جزءًا مِن ذراعه، يحتضن حريقًا قديمًا، ويهمس:

– هذه تشهدُ أنّي طلبتُ بما يكفي..

كشفَ حرقًا آخرَ ببطنِ قدمه..

– وهذه تحكي أنّي طلبتُ بما يكفي..

وأظهرَ حرقًا ثالثًا بعنقِه، والعبراتُ تسكن عينيْه..

– وهذه تُقسمُ لكِ أنّي ناديتُكِ كلّ ليلة بما يكفي.

والله إنّ هذه الحروق لا تشهد إلّا على بطشِ الإنسان، وضياعِه الأمانة.. صمتتْ «سميّة» سائحة بين النيران، مدّ أناملَه إلى وجهها، وهمس:

– أخبريني أنّني أنا.. حدّثيني عني يا «سميّة»، وسأحدثكِ عنكِ.

تهدّج صوتُها وهي تلتفّ حولها:

– حديثُنا الأوّل بعد الفراق سيكون الأخيرَ قبل الموت.. ألا تنظرُ حولك؟!

– ما دام هو الموت.. فلا وقت عندي إلّا لكِ، ووالله لنْ أضيّعكِ هذه المرّة.

أخفَت وجهها حتى لا يستشفّ الناظرُ إليها بصيصًا ولا قبسًا، نادى «أبو ليلى» مُعاتبًا:

– يا بنيَّ ما بالكم قدِ استبدّ بكُم الشوق، وأذهب عقولَكم عنْ مُصابنا جميعًا!؟.

أقبلتْ عليه «سميّة» زاحفةً حتى لا تلمحها أعينُ الخاطفين إنْ فُتِحَ الباب، قالت:

– والله يا عمّ، إنّ الفراق ذبحٌ للفؤاد، موهِنٌ للقلب، ونحن تفرّقنا صغارًا وجمعنا الله كِبارًا.

– يُفرّقون الأحبّة! فرّقهم الله.

خفضتْ عيونَها عن الجميع وهي تنفي..

– والله ما كُنّا يومًا أحِبّة.. بل هو أخي منذُ أن كتبَ الله على عينيّ رؤيةَ الحياة، وهو سندي منذُ أن ماتَ أبي وأمّي في ذاتِ الحريق، وهو عائلتي كلّها يوم أنْ رفض الجيرانُ أن تأويني سقوفُهم.

أقبَلَ «عربي» وجاورها بمجلسها جانبَ قدميّ «أبو ليلى»، وأضاف:

– وهي أختي منذ أنْ رضعتْ لبنَ العام ونصف، ولم تكن بعدُ قدْ أتمّت الشهريْن، هي أمانتي التي حملتها مِن الدنيا، هي ضلعي المفقود، وقلبي المولود.

بالخلفِ، خرج صوتٌ يهمس خجلًا، لكنّ فضولَه شديد:

– وكيف يفرّقون الأخوة؟!

– لأنّ الأخوة قانونٌ بالدّمِ لا بالرضاعِ.

سألت «سمية»:

– أخبرني يا عمّاه.. ماذا سيفعلون بِنَا؟

– والله يا بنتي لا أدري.

تراصّت الأقدار ليُفتَح الباب بنفس الوقت ويخرج منه الضّخم، فيُلقي أولًا بجسد الناصحِ فوق جسد المشرف؛ فيفزع الجميعُ من رؤيته، وقد خُنِقَت منه الحياة، ثمّ يندفعَ تجاهَ «أبو ليلى» يجذبه، والأخير لا يقوى جسدُه على دفاعٍ

أو كفاح، لكنّ الضّخم كان مصرًّا على إمساكِه والعودة به حتى غرفة قيادتي، لمح وجه الطيّار وقد هربتْ منه الدماء، ويدُه ترتعش فوقَ أدوات التحكّم؛ فأيقن أنّ المستقبل يحمل كلّ الشّرر، دفع الضّخم به، وأغلق البابَ بعدما أمرَ الرجلان بمراقبة الجميع.

تذلّل «أبو ليلى» طلبًا للعفو عنْ حياة الشباب كلّهم، توحّشت نظراتُ الضّخم، وتململ وجهُه من كلمات الاستجداء، هزأ:

– لا داعي لكلّ هذا.. فمصيرُكم مَحتوم، أنا أعلمُ قدر الله فيكم، أتدري كيف؟

ظهرَ على وجه «أبو ليلى» جهلُ الإجابة؛ فهمس الضّخم مُتلذّذًا:

– لأني مَن سأنفّذه.

قالها وأخرجَ من جيبهِ المسدس، وضحكَ ضحكةً شامتة..

– رصاصةٌ واحدة بنافذة الطائرة وينتهي كلّ شيء.

نقلَ «أبو ليلى» بصرَه بين القاتل وسلاحِه، والصدمةُ تغزو كلّ وجهه، تذلّل له:

– أعطني الفرصةَ وسأُحدِّث شريكي وأقنعُه بدفعِ المال..

ضحكَ الضّخم:

- لكنّ شريكك بالفعلِ وافقَ على دفعِ المال.

تعثّرت الكلماتُ و»أبو ليلى» لا يكاد يعي سببًا:

- أنتُم ما كان هدفكم أبدًا المالَ.. أليس كذلك؟

بطريقةٍ مسرحية.. رفع الضّخم يدَه على رأسه، وكأنه يزيح قبعةً، ثمّ انحنى هامسًا:

- يعجبني الذّكاء، أتعلم.. بين رفقائي أُلقّب بـ «الطبيب النفسي» لأني أحبّ دائمًا التلاعبَ بأفْكار أصدقائي الجدّد.. قبل قتلِهم طبعًا.

تلاشى أثرُ صوتِه الأخير، وبقي وجهُه وقد اكْتساه شيءٌ من الجنون:

- أُخبركَ كلّ هذا لِتعلَم أنّ هؤلاء الشباب بالخارجِ أنتَ مَن قتلهم.. وليس أنا، أنتَ مَن جمعتَهم وليس أنا..

- لماذا تفعل كلّ هذا؟

- السبب؟! أظنّ الانتقام، مَن المُنْتَقِم؟ للأسف لا أستطيعُ الإجابة.

كان «عربي» يغطّي «رحمة» برداءٍ أخرجتْه له «سميّة» حينما فُتِحَ الباب، والضّخم يجذبُ «أبو ليلى» من ملابسه، ويدفع به إلى ركنٍ مِن الأركان، ثمّ غمزَ صاحبيْه وأشارَ لهما باتّجاهٍ ما؛ فأرقَلَ أحدُهما، وأخرج ثلاثًا من حقائب المظلّات، دفعَ باثنتينِ منهما لصاحبيْه؛ فارتدوهما، ذعر الجميعُ، وأسقطوا

أنظارهم أرضًا؛ خوفًا من بطشِ الضّخم، أمَّا هو فقد أخرجَ سلاحَه ورفعه تجاه حائطي وجذبَ زرّ الأمان!

الآنَ حانَ دوري أنْ أصبِحَ المقتول، بلا جُرم وبلا معنى غير الظّلم والهوان، قدّر الله لي أنْ أكون فقط «طائرة»، آهٍ لو أنّني جبلٌ فيأذن الله لي؛ فأدُكّ القاتلَ دكًّا! ليقتلني إنْ شاء، لكنْ سأقتله معي وأدفنُه معي، انقضّ «أبو ليلى» في نفسِ الوقتِ، مُنافيًا كلّ أسباب النصر، وجذب سلاحَ الضّخم تجاهَ صدره؛ لتخترقَه الرصاصة هو.. لا نافذتي أنا!

أثِقُ أنّه لم يضحِ لأجلي، بل لأجل مَن حَواهم قلبي، لكنّي سأقفُ مُمتنًا لهُ يومَ تجتمعُ الخصوم.

***

الأرض، عام ٢٠١٧

ذرّاتٌ مُتفرقة مني، ترتفعُ عنّي؛ فتكنسُها الريح، وتهدهدُها الشمس، ثمّ تعزفُ بها أشعتُها لحنَها المقدّس؛ فيُنصَب الطريق.. زاهيًا بألوانٍ قزحية!

على جانبي الطريق وضعت سلّة تمتلئ بالورود، يفوحُ منها الطيب، بعدها بقليلٍ وُضِعت سلّة أخرى، وأخرى، وأخرى... حتّى انتهت تلك البقعةُ منّي، أقدامُ الصغار تُسرع بالقفز عليّ، والهرولة مِن فوقي وعلى جانبي، تتوقّف أقدامُهم بجانب السّلال، يُجلجل بيْنهم صوتُ العراك...

- أريد الوردةَ الحمراء!

- وأنا أريدُ الوردةَ الصفراء!

- وأنا لا أحبّ البيضاء.. أعْطني الحمراء.

- هل هناك وردةٌ سوداء؟

يتجمّع الأهالي حول الأطفال، يصدح الضحكُ عاليًا، نادى مُنادٍ:

- الطعامُ جاهز.

اتجهت كلّ الأجسادِ إلى مكانِ الصوت، حركاتٌ مُحدّدة مِن أقدامهم، وكأنّ هناك خطوطًا مَرْسومة دَلالةً على أماكنهم، كلّ قدمٍ تتّجه إلى موضعٍ، ثمّ تجرّ ثِقلًا ما فوقي؛ فتجلِس عليه.

بعضُ الشّباب أقْبلوا مُتّجهين إلى ركنٍ من الأركانِ، جلسوا بلا كلماتٍ، يغلبُ عليهم الخَرس!

قدمٌ أقبلتْ عليهم، قال صاحبُها:

- تعالوا يا شَباب.. طاولتُكم هناك.

قام الشباب بتثاقلٍ وراءَ صاحب الكلماتِ حتى وصلوا إلى ركنٍ بعيدٍ عنْ موضعهم الأوّل، وبمجردِ وقوفِهم على عتبتِه؛ همّت تجاهَهم نفوسٌ مُتلهّفة في حركاتها، تعانقتِ الأجساد، وجاءتِ الأصوات:

– أرهقَكُم السفرُ يا أبنائي؟

– بعض الشيء يا أبي، لا تقلق.

– ارْتحتم بنوْمِكم؟

– نعم يا أمّي.

– هل أعجبتْكُم القرية؟

– جيدة حتى الآن يا عمّي.

وهكذا.. استمرّت الأسئلةُ، وتهافتتِ الأجوبة، حتى قال واحدٌ مِن الشباب:

– لِمَ لَمْ تُخبرونا أنّه يُمنَع علينا إحضارُ هواتفنا المحمولة؟!

– أمرٌ بديهيٌّ يا ولدي، فلا كهرباءَ هنا ولا إنترنت كما تعلم؛ فما فائدةُ الهاتف المحمول؟!

– كان الأمرُ مُحرجًا عند دخولِ القرية وقد نزع أفرادُ الأمن منّا هواتفنا وأجهزتنا الإلكترونية كلها..

– كنّا كمَن ضُبطَ بممنوعات!

– لا تنزعجوا يا أبنائي.. فهذه القرية لها قوانينُها التي لا يُسمح بالحيادِ عنها.

– وهذا الشرطُ الذي يزعجكم هو السببُ الرئيسي وراءَ قدوم كلّ أولئك الأشخاص إلى هنا.

بكمَتِ الأصوات بعدَها بعضَ الوقت، حتى قطعته واحدةٌ من الأُمّهات الثلاث:

– هل أنتم راضون عنْ هذه الرحلة؟

– ليس تمامًا..

– قليلًا..

– لا مشكلة، أيّام وستمرّ.. المهمّ وعدكم..

– قائمٌ يا ولدي.. قائم، لكن....

– لكنْ ماذا يا عمّي؟

خرسَ ذلك العمّ قليلًا؛ فسأل الصوتُ ثانية:

– أخبرنا يا عمّي ولا تقلق؛ فلن نغادرَ إلّا بعد الثلاثة أيام.

– ليس هذا ما قصدتُه يا ولدي.. الأمرُ أننا لم نحضرْكم إلى هنا لنُكدّر عليكم، وما دامت القريةُ لا تُريحكم؛ فيحقّ لكم الرحيل.

– أجل، يحقّ لكم الرّحيل.. فجيلُكم لم ولنْ يعتاد أبدًا كيفيةَ الحياة بهذه القرية.

– توقّف يا عمّي، أرجوك...

– يا عمّي، الاتفاقُ.. اتفاقٌ، فلا تقلق.

– وماذا عنكما أيّتها الفتاتان؟

– كما أخبركَ «لامبورجيني» و«كاديلاك» و«فيراري».. الاتفاقُ.. اتّفاق.

علَتْ أصواتُ الآباء والأمّهات بوقتٍ واحد، وباستفهامٍ واحد:

– ما هذه الأسماء؟!

أتى صوتُ أكبرِ الشباب:

– هذا شرطٌ بيْني وبيْنَهم يا عمّي ليس أكثر، لا تقلقْ لم يصبنا الجنونُ بعد.

– وما الذي يدفعُكم لموافقتهِ على هذا الشّرط؟

خَفيت أصواتُهم وانْمحى أثرُها، وبدأت أرجُلهم تقرعُ من فوقي قرعًا مُتواصلًا قلقًا، إلى أنْ أجاب ذلك الـ لامبورجيني»:

– يا أعْمامي، لِمَ كلّ هذا القلق؟ أترونَنا مُتهوّرين بما يكفي لِنتّخذ قراراتٍ عفوية مثل هذه، ودونَ أن تحكُمنا أسبابٌ قوية! مِن المُهمّ أن تعلموا أنّ الأمر كلّه يتوقّف على الاستسلام.. أول مَن يستسلمُ منّا ويرفضُ هذا الاتفاق القائمَ بيننا؛ فقد تنازل عنْ قرار تعْيينه الجديد بالشركة.

شهقتْ بعضُ الصدور، تخبّطت بعضُ الأقدام، قرعتْ فوقي بعضُ الأرجل، أكمل «لامبورجيني» وهمْهَمات الاسْتهجان لم تتوقّف بعدُ مِن الآباء والأمهات:

- متى نأكلُ يا عمّي؟

لم يُجِب أحدٌ مِن الأعمام، دقائقُ حتى علتْ أصواتُ أطباقِ الطعام وهي مُرسلة على الطاولات، تخبّطت الأكوابُ واصطكّت المعالقُ بالأطباق، مرّ الوقت حتى انتصفَ اليوم، والكلّ يسير بِرَتابة، أقدامُهم تتثاقل مِن فوقي بمللٍ، يسيرونَ بخطًى مُتعرّجة مُتعثّرة.

انتهى ضوءُ النّهار؛ فتملّك الليلُ زِمام المرحلة، تلاقتِ الأقدامُ كلّها على عتبةِ المسجدِ وقتَ المغربِ، بعد الصلاةِ قام الإمامُ فيهم خطيبًا:

- إيّاكم أنْ تدلّوا الناس على الله؛ ثمّ تفقدوا أنتُم طريقَكم إليه....

أيّها الناس، لا تنظروا لما كتبَ الله لعباده ولم يكتبْه لكم؛ فقد جعل اللهُ لكلّ روح منكم قدرًا ورزقًا.

أيّها الناس، لا شيء يخترق القلوبَ كلُطف العبارة، وبذلِ الابْتسامة، ولين الكلام؛ فكونوا دواءً للصدور أيْنما حللْتم.

أيّها الناس، كونوا رحماءَ فيما بينكم، رحماءَ على صغاركم وأزواجِكم وجيرانكم؛ فالرحمةُ دليل القلوب، والقلوبُ لا تنبض إلّا برحمةٍ من الله.. فإنْ رَحِمتم؛ رُحِمتم.

أيّها الناس.. انْظروا مَن كان فيكم وحيدًا وسط الضجيج وعانقوه؛ فلِغربةِ القلوب أنّات لا حِسّ لها.

انتهتْ كلماته وبقي أثرها، وإني لأسْمع دويّ الكلمات وهي تقرع فوقي قرعًا لطيفًا. أذّن العشاء؛ فصلوها، ثمّ خرجوا مِن المسجد يصحب الضوءُ أثرَ أقدامهم، كلّ مَن مشى فوقي كأنما يخطو بحذاءٍ من نور، يحملُ قبسًا مِن سرور! قدّر الله لي السماع ولم يُقدّر لي الرؤية، إلّا أنّ تلكَ الأنوار تغشى كلّ طبقةٍ منّي وقتَ مرورها، يكون مرورُها فوقي، فأجدُ أثرها تحتي، وهذا خصيصًا لأهلِ الصلاة، حينها ألمس بنورِ وضوئهم معنى الحياة! أتنفّس خطاهم عليَّ حتى ينتهي أثرُهم ويذهب ضوؤهم ويخفتُ صدقهم؛ وحينها تعودُ نفسي القديمة إلى نفسي.

أمامَ المسجدِ التقى الشبابُ الأربعة بالفتاتين، قال صوتٌ فيهم بتلهّف:

– «فيراري».. أخبرني أنّ عندكَ جديدًا، رجاءً؟

– لا جديدَ للأسف، القرية فعلًا بلا أي تكنولوجيا أو كهرباء.

تحدّث صوتٌ مُختلف:

– وكيف سنطمئنّ أنّ أماكننا بالشركة لم تُسرق؟!

قال كبيرُهم:

– لماذا هذا القلقُ يا «مرسيدس»؟ الأماكن مؤكّد محْفوظة، وكلّ الأمر ثلاثة أيام كما اشترطوا علينا.

نطَق صوتٌ آخر:

– ومَن يحفظ لنا أعمالَنا العالقة لحينِ غيابنا؟ فأنتَ تعلم جيدًا أنّ نسبة أعمالنا هي ما تؤثر على ثقة آبائنا.

قال «لامبورجيني»:

– ومَن قال إنّ ثقتَهم تعتمدُ على هذه الأعمال اعتمادًا كليًّا.. المهمّ هو تعاملُنا على أرضِ الواقع!

– توقّف عنْ هذا الكلام مِن فضلك.. ألستَ الوحيد فينا الذي غادرَ الشركة، وكلّ الأعمال؟ فلماذا تدّعي الآن اهتمامك؟

أكملت «مرسيدس»:

– فضلًا.. دعْ رأيكَ لنفسِك.

أعتَمَت آثارهم فجأة، وكأنّ وضوءهم تبخّر واخْتفى، وهذا هو الحال دائمًا.. بمجردِ أن ينسى البشرُ صلاتَهم التي ما لبثوا قدِ انتهوا منها؛ حينها تتملّك دنياهم وتفرضُ على نورهم ظلامَها!

أعادَ ذلك «الكاديلاك» سؤاله:

– هل عند أيٍّ منكم خبرًا قدْ يفيدنا في أمرِ هواتفنا، أو أي وسيلة إلكترونية نُتابع على إثرها الأعمالَ بالشركة؟

- الأهلُ هنا لا يهتمّون أبدًا بتوْفير هذه الاحتياجات.

قال «لامبورجيني» مُتهكّمًا:

- ربما لأنّ لهذا السببِ أنشأوا القرية من البداية!

تدخّلت حينها أصغرُهم:

- صدقتَ يا أخي، بالإضافة أنّ القرية الحديثة قريبةٌ من هنا، ومَن تعطّلت أعماله مِن الزوّار يستطيعُ الذّهاب هناك، والرجوعَ بنفس اليوم؛ فهي قريبة جدًّا.

تحرّكت الأقدامُ فجأة تجاه الصغيرة وصخبَ صوتٌ منهم:

- أتمْزَحين يا «بورش»؟

- لماذا كتمتِ تلكَ المعلومة كلّ هذا الوقت؟

- أيُّ معلومة؟!

- معلومةُ القرية الحديثة أيّتها الذكيّة.

أتى صوتُ «لامبورجيني» مُحذّرًا وناهيًا:

- أوقفوا هذه الأفكار، وأخرجوها من رؤوسكم فورًا.

- لماذا؟ أما سمعتَ! بإمكاننا الذهابُ والعودة بنفسِ اليوم...

– نستطيعُ معرفة سيرِ الأعمالِ في نهاية كلّ يوم، ونؤدي مهامّنا عن بُعدٍ لحين عودتنا من هذه الرحلة.

هتفَ «لامبورجيني»:

– لا تُفسدوا كلّ ما تعبْتم عليه أمامَ هذا التهور.. انتظروا لحين عودتنا.

قالت «مرسيدس» بحزْم:

– أنتَ لا زلتَ لم تفهَم بعد، ولا أظنكَ تستطيعُ الفَهم.. إنْ أردنا من آبائنا أنْ يحترموا عقولنا وآراءنا وأفكارنا؛ فيجبُ علينا الذّهاب إلى هذه القرية.

أكملَ «كاديلاك»:

– بعد عودتنا واكتشافهم أن بُعد المسافة وكثرة المُعوقات لم تمنعنا عن القيامِ بعملِنا؛ فهذا وحده كفيلٌ بإعلاءِ ثقتهم فينا.

أضافَ «چجوار»:

– وتيقنهم أننا نستحقّ بالفعلِ المناصب التي نُطالِب بها.

زعقَ «لامبورجيني» بحزمٍ:

– لا أستطيع السّماح لكم؛ فأنا أمـــــــــــــ.....

قاطعته «مرسيدس» بصوتٍ أكثر حزمًا وقوةً:

– توقف أرجوك، أن نصبرِ على مزاحك وتصرفاتك الغير عقلانية أمر... وتدخلكَ الآن في أهمّ مراحل عملنا، وإثبات أنفسنا أمرٌ آخر.

أكّد صوتٌ على صوتها:

- وأنا أُوافقها الرأي.

- لولا أنكَ أكبرنا لما أتيناكَ وطلبْنا منكَ القدوم، نحن أُجبِرنا على كلّ ذلك حتى يستمعوا إلينا فقط.

اقتربَت أقدامُها حتى توقّفت أمامَ أقدام كبيرهم، وأفصحت بكلِّ وضوح:

- صَبْرنا عليك وصلَ لآخرهِ، وتعلَم جيدًا طموحاتنا ونحن نعلمُ جيدًا أقصى طموحاتك؛ لهذا سأطلبُ منكَ.. لأجل الصداقة التي جمعَت أهلينا وجَمَعَتنا.. من فضلك ابتعدْ عن طريقنا.

هل يُمكِن أن تصلني نبضاتُ قلب أحدِهم، وأنا من أنا، والقلب هو القلب!

لولا أنّ أقدامَ ذلك الـ«لامبورجيني» ثابتة مكانَها لكنتُ أقسمتُ أنّ الفتى قد سقط فوقي حتى التصقَ قلبه بي فتلقّفتُ نبضاته وتلقّفتني! لكنّه لازال راسخًا مكانَه، تضرب نبضاته مِن فوقي ألفَ ضربة!

***

«أمّا قبلُ»

على أطرافِ أصابعِه دَلَف إلى منزلِه، يخشى أن تصحوَ زوجته على صوتهِ فتُكدّر ما تبقّى من ساعات ليلِه، لكن ما تمنّاه لم يتحقّق.. فقد ظهر صوتُها جليًّا غاضبًا مُعاتِبًا:

– ثلاثة أشهر وأنا أتحمّل هذا الهُراء منك يا «خَليفَة».

توتّرت قدمُه على إثر صوتها؛ فتخلخلتْ وسقطَ بجسدِه فوقها، تنفّس بقلق مُتلعثِمًا وقائلًا:

– لَم أنتبه لمرور كلّ هذا الوقت يا حبيبتي،، كنتُ سأنتهي عصرًا، ولكن..

قاطعتْه صارخة:

– أنا لا أتحدّث عن اليوم.

– حسنًا.. أخفضي صوتِك، ولنتكلّم بالدّاخل، فابننا نائم، وإن لم تخنّي الذاكرة فتدريبُ سباحته فجرًا.

– فجرًا، عصرًا، عِشاءً.. كلّ هذا لا يهم، أينَ أنت يا «خَليفَة» ؟ لم نعدْ نراك.. ابنك لم يعدْ يراك.

– يا امرأة، أنتِ تعلمين «أين»، المصائبُ لا تنتهي، لا أدري كيف استطاعَ «إسماعيل» القيامَ بهذا العمل وحده؟!

– ألنْ ننتهِ من ذلك الهَمّ؟ أعرِفُ أنَّ للمرأةِ عِدّة إنْ مات زوجها، لكنّ الزوج إن ماتتْ عنه زوجته....

ثمّ حرّكَت حاجِبَها صعودًا ونزولًا مُكملة:

– يصبح امرأة ويختبئ بالمنْزل!!! فهذا ما لا أعرِفه.

– توقّفي عن هذهِ الأقوال وقدّري حاله، كانت حبّ حياتِه، وابنُه الذي ماتَ كان أقصى أملِه....

ثُمَّ زفرَ بقوةٍ وهو يُضيف:

– موتُ ابنه وزوجتِه ضربَهُ في مقتَلٍ وأنا فقط أُحاول إحياءَ حُلمِه واستمرار القِسم الذي أنشأهُ لخدمةِ الناس حيًّا.

نظرَت إليهِ بشكّ، وهي تهتف:

– لِمَ لا يُساعدكَ «صلاح» إذًا؟ فلا ولَد له.. فقط زوجة مُسالمة لا تشغلها غير صلاتِها ورضا زوجها!

– «صَلاح» مسئول عن موقعي في شركةِ المقاولاتِ بالإضافة لمتابعتهِ «إسماعيل» وزيارته يوميًّا.

– ما زلتْ لا أدري ما يهمّنا إن استمر العمل جاريًا في قِسم «حلّ الأزمات» أو لم يستمرّ، المهمّ هو شركة المُقاولات لأنّها هي ما تدرُّ المال!

أمسكَ كتِفيْها بحنانٍ بالغ، وهو ينظرُ إلى عينيها مُتحدّثًا:

– لا تظنّي للحظةٍ أني قد أضيع مالي ومال ولدي في هذا الأمر، أنا فقط اكتشفتُ كثيرًا من الغنائم المُختبِئة داخلَ هذه الأزمات، والتي تخفَى عن عينِ «إسماعيل» وعقلِه؛ لهذا أُبقي على حلمهِ حيًّا تحتَ يديّ أطول فترةٍ مُمكنة دونَ تَدخّل من «صلاح».

***

فَتَح الأنوار التي أظلمَت منذ مدّة، ولم يجرؤ أحدٌ على إيقاظِها؛ صاح «إسماعيل» غاضبًا ولاعِنًا ذلك الضوء الذي أتعَب عينَه، أقبَل عليهِ «صلاح» مهدئًا وطالبًا منه إعطاءَ نفسِه فرصةً للخروج مِن عزلتهِ هذا اليوم– مثل كلّ يوم– وكالعادةِ قابلَه الأول بعظيمِ غضَبٍ ونفور؛ فهبّ الثاني عليه بكلّ قهرِه وحزنه صارِخًا:

– تعيشُ كالأموات يا صديقي.. كفَاك.

– مِتَّ عند موتِ زوجتي.. دعْني في سلام.

– وزوجتَك الأولَى؟!

– أُطلّقها ثلاثًا.

– ما هذا الهُراء يا «إسماعيل»، لقد وعدتَ «نُور» يا رجُل أن لا تدعَ حلمك يموت!!!

صمتَ «إسماعيل» طويلًا؛ فصرخَ به «صَلاح» غاضبًا:

– لماذا إذًا وعدتَ بما لنْ تفعَل؟!

ظلّ الصمتُ حاضرًا؛ فهدَرَ «صَلاح»:

– لقد صبرتُ عليكَ كثيرًا...

ثُمَّ هَبَّ مِن مكانِه، ونَزَلَ على فكِّ صاحبِه بلكمةٍ جمعَ فيها كلّ طاقتِه وغضبِه وقلقِه.. وصراخُه يتردّد بالأرْكان:

– لماذا!!!!!!!!

سقطا أرضًا والصدمةُ تغشى الضارِبَ والمضرُوب، زَحف «إسماعيل» إلى أحدِ الأركانِ وبضع قطراتٍ من الدّمِ تجاوره الزحف حتى الحائط، أسندَ ظهرَه وأخذَ نفسًا قصيرًا، ثمّ قال:

– لماذا! تسألني لماذا؟!

إنْ كنتَ مكاني لما سألتَ ما سألت!

فكيف لكَ أن تعلَم شعورَ مَن يجلِس بجانبِ قطعةٍ من روحِه وهي تتنفّس آخرَ أنفاسِها.. تراقِب كلّ نفسٍ لها وتأمل.... مُجرّد الأمَل أنْ لا يكون نفَسَها هذا هو الأخير.

تَتَحسّس وجهَها محاولًا حِفظ ملمَسِه داخِلَ قلبِك حتى لا تنسى أنّهُ يومًا ما كانَ لكَ جسدٌ آخر يسير بشقِّ قلبك.

هُنالِك لم يستَطِع «إسماعيل» إضافةَ حرفٍ آخر، والكلمات تتهاوى على شفتيه، سكتَ طويلًا حتى هدأتْ أنفاسُه، وجفّت بعضُ عبراته ثمّ أضاف:

– في ذلِك الوقت وعدْتُها.. وكيف لي أنْ لا أفعَل؟!

أحيانًا تُضطرّ يا صديقي أن تَعِد حتى وإِن كُنتَ تعلَم أنكَ لنْ تستطيع أبدًا الوفاء.

– إذًا فقد خُنتَ زوجتيْكَ يا «إسماعيل».. واللهُ لا يُحبّ الخائنين.

شهقَ بفزعٍ على إثْرِ جُملة صاحبِه ممّا دفع «صَلاح» أن يخفّف من حدّة صوتهِ قليلًا قائلًا:

– أعلَم أنّ خسارةً كهذه تجعلُك تخاصِم الحياة وكلَّ ما فيها، لكنْ مع ذلك يجِبُ عليكَ أن تنهضَ وتحيَا وأنتَ على ثقةٍ أنّ الله أعطاك حياةً لحكمةٍ وليس من بابِ العبث.

– لا أعرِف إنْ كنتُ مستعدًّا لذلِك.

– إذًا تظاهرْ أنكَ مُستعِدّ، تظاهرْ بقوّة.. تظاهر بما يكفي لتجعَل قلبَكَ وعقلكَ يصدقَا ذلِك التّظاهر.. وعِش.

هرَبَت مِن عين «إسماعيل» عبرةٌ لم يبذلْ جهدًا لإخفائها، ولسانُه يهتِف:

– كيف أعيش.. وهي لا؟

– خدعَك مَن أفهمَك يا صاحبِي أنّ عيش حياتك خيانةٌ لمن رحلوا، فالخيانةُ العظْمى هي أنْ تسير بين الناسِ ميتًا في جسدِ حي.

هوى جسدُ «إسماعيل» أرضًا، وفراشتُه الصغيرة لا تُفارق يدَه! يضمّها إليه بقوةٍ ولا يملك غيرَ الصمت!

***

الطـائـرة، عام ١٩٩٥

لَمْ أعرفْ لي يومًا وجودًا ولا انتماءً إلّا في عيني صاحباي، وإنْ خلت السّماء من البشر وأقفرتْ أطرافها من خوافِق القلوب كلّها إلّا من خافقيهما؛ لكفَياني. ولو أنّ السّحب قد بدّل الله قطراتِها عيونًا تنظر إليَّ إعجابًا وإكرامًا، ثمّ لمحتُ أقلّ معاني الفخر منْ عيني صاحباي؛ لكَفَياني. أمّا الآن وقد صارَ الموتُ جاثمًا على صدرِ واحدٍ منْهما؛ فأرى كلّ جزءٍ بالعالمِ يحتضر، حتى الشمس تكاد تتوارَى بجوفِ القهر، والرّياح مِن حولها تنزاح يأَسًا وخجلًا!

الألمُ يمزّق أفكارَ صاحبي «أبو ليلى» ويمضغها مضغًا، المسدّس مُستقِرّ بيْن راحتيْهِ بعدما نافسَ فيه الضّخم، ومع انفلاتِ الرّصاصة؛ انفلتَ السلاح!

«سمية» مُنكبّة على الجرح تدفعُ الدماءَ داخله لتحبسَها، شابّين انقضّا على الضّخم؛ فيقاتلهم ويقاتلونه، يضاربهم ويضاربونه، واندفعَ ثلاثةُ نفرٍ على

الخاطفين الآخَرين، أمّا «عربي» فقد أرقَلَ إلى «الطيّار» يسأله طلبَ النجدة، تناثروا في حنايا قلبي كلّهم وتدافعوا غوصًا وهربًا، إقبالًا وإدبارًا، غضبًا وانكسارًا، وكأنّي بيومِ العرض والله يسأل.. «من ضيّع الأمانة؟»

فيفزع الإنسانُ من جُرمه؛ إنه كان ظلومًا جهولًا!

«أبو ليلى» يضربُ حائطي بقبضتِه من قسوةِ الألم، تحملُ خبيئةُ نفسه قهرًا لا مفرّ منه، وهو قهرٌ لا يصمد أمامَه أحد، حيث يفنى الجسد، أكادُ أهتِف.. «تحمّل يا صاحبي.. فلا زال الطريقُ طويلًا»

لكنّ الدّماء التي تفرّ من جسدِه تصرخ.. «طريقي وصلَ لنهايته!»

زاد الثلاثةَ ثلاثةٌ وتكالبوا على الضّخمِ، ثبّتَ اثنان قدميها، وثنّى ثلاثة ذراعاهم، أمّا الأخير فبكلّ قوتِه صدمَه بحقيبةٍ على رأسه؛ فتكوّم على إثْرها أرضًا يجاور صاحبيْه، أحنوا رؤوسهم وأغلقوا أفواهَهم، تراهم وقدْ تملّك الذلّ من نفوسهم وتضعضعَتْ قواهم، لكنّي وحدي من كُشِفَت لهُ خبيئة صدورهم وحقيقةُ استسلامِهم!

حمل أحدُ المشرفين السلاحَ، ووجّهَه إلى الخاطفين، علَت خِلقته فورةُ الفخر ونشوةُ الانتصار، تعانق البعضُ وهلّل البعض، نسوا أنّ هناكَ أرواحًا قد اسْتُنزِفَت من حولهم، وأنّ انتصارهم لا زال معلّقًا بين السّماء والأرض! لو أنّ لي كفًّا من حديد؛ فأصفعُهم بها صفعةَ الدنيا! كما تفعل يدُ الطبيب بجسدِ الرضيع؛ فتخبره تلك الحقيقة المبكّرة.. «الحياةُ كفاحٌ.. لا راحةَ هنا»!

أظلمَت عينُ «أبو ليلى» لكنّ قلبه لم يعتمْ بعد! غابَ في حنايا الألم وروحُه بين يدي الرحمن يقلّبها كيف يشاء، اضطربتِ الأجساد وخشعتِ النّظرات..

- جهاز الاتّصال مُحطّم!

هكذا هتفَ «عربي» حانقًا؛ انمحتِ الابتسامات وارتسمَ القلق بديلًا عنها، صاح أحدُ المشرفين:

- لا يهمّ جهاز الاتّصال.. المُهم أنْ أصلَ بسلام.

لم تستوقفْ عبارته أيّ مِن النفوس المحيطة به! أو لعلّها تشابهتْ مع قناعات البعضِ؛ فلم يهتمّ أحدٌ بالتعقيب، لكنّ «سميّة» أشارت للخاطفين مُعترضة:

- وماذا سنفعلُ مع هؤلاء عندَ وصولنا؟

أعرضَ المشرف عنها وهو يشيرُ إلى شابين، ثمّ أمرهما بالمكوثِ جانبه وهمس:

- لا تفارقاني حتى نصل.

تنحنَحَ المشرفُ الآخر مُنتبهًا واتّبع نهجَ مَن سبقه، ودعا أمانته- سميّة- لتجاوره، لَمْ تقبِل عليه أو تستمعَ إليه، ناداها، هدّدها، غضبَ عليها، لكنّها لا زالتْ تأبى طاعته، وقفَ «عربي» منها موقفَ الحائر وهو يَراها تتصرّف

بلا تفسير، ولو أنّه يعلَم ما أعلَمُ، ويفهمُ ما أفهم؛ لغفرَ لها ذلك العصيانَ والنفور، فأنا وحدي مَن يشهد على ذلك المُشرف حينما كانت روحُ «رحمة» تُزهَق.. كان هو يخفي رأسَه بين قدميْه، ويجعلْهما بمحاذاة كتفيْه، ويشهدُ الله أنّ «سميّة» لجأتْ إليه، وجذبته ليخرجَ من جحرِ هروبه، لكنّ المشرفَ تركَ مُهمتَهُ وهمّته، وجعل طموحَه كلّه.. النجاةَ بحياته فقط!

حرّكت رأسَها بقوة فأراها تنفضُ عنها أي لمحةٍ من المُشرفِ وهي تغضّ بصرها عن وجْهه، تكفيها الذكرى الباقية، تقذفُ بها في أعماقِ دموعها؛ فتغرقها.. كيفما اتّفق، لعلّ العبرات تنقلب إعصارًا فتأتي على ما تبقّى من ذكريات الأحزان؛ فتنسفُها جميعًا.

اضطربَتِ الأصوات..

- مِن حقّي حملُ السلاح.. فأنا أكبركم عمرًا.

- العمرُ ليس معيارًا.. المهمّ مَن دافع وتصدّى.

- أتمزحُ يا رجل.. كلّنا كنّا فئران.

- تحدّث عن نفسك.. فأنا وقفتُ بوجْهِهم.

علا ضجيجُهم وخلافهم، الكلّ انصرف لعراكٍ لا حاجة إليه، ثاروا كالماء حين يسقطُ من السّماء ليستقرّ بالأوْساخ! أمَا وقد بلغوا السّماء حينما وقعَ الضّخمُ بقبضتهم لكنّ الآن سقوطهم يبدو أسرعَ من الماء المُرسَلِ بكثير!

حركاتٌ مُتعدّدة مختلفة، لكنّها مقدّرة لأهدافٍ ما، كالفوْضى المنظَمّة.. أغلبهم يتحرّك باحثًا عن شيء حتى إذا ما وقعتْ عيونهم على بُغيتهم؛ أخفَوها داخلَ ملابسهم أو تحتَ أرجلهم، رابني في أفعالِهم شكّ؛ فأتبعتُهم نظري حتى كشفتُ عنْ أفعالهم القناعَ وأثبت ريبي عن مُعاينة.. بعدما وجدتُ واحدًا يُخفي حديدة، وآخرَ يحمِل ذراعَ حقيبة، وثالثًا اسْتعان بعكّاز، ورابعًا جلس مجاورًا لحاملِ السلاح.. وخامسًا.. وسادسًا...

هكذا تحوّل كلّ واحدٍ بسلاحه، ووضعَ فيه من الثّقةِ والإيمان ما يصلحُ لملء مَيدان! نفْسي.. نفْسي.. وبعْدي الطوفان! ثمّ وقفَ كلّ واحدٍ بمكانٍ يتَعارضون النّظرَ فيما بينهم، ويُرسِلون التّحذيرات بأبصارهم! لا ألومُ عليهم تلكَ (الأنا) في حوار السّلامة؛ لأنّهم لا يستطيعونَ أن يكونوا غيرَ ذلك، فمهْما حاولوا.. ستظلّ الأهميّة الأولى والعظْمى هي نجاةَ كلّ منهم بحياته، وكلّ امرئٍ عنْ روحِه مسئول، ولا حولَ لي فيهم ولا حيلة.. لكنّ آمالي في إنسانيّتهم كانت تبلغُ الفضاء!

على مدِّ البصرِ أرى تلك الرياح المُزعجة، لطالما سئمتُ وجودَها لِما تحدثهُ من خللٍ بأرْكاني، لكنّي الآنَ مُشتاق لها ولذْبذباتها، ولعلّي أُساعدها في تحقيق مرادِها هذه المرّة، وأدعها تفعلُ بي ما تشاء، فهي يدي التي لا أملكُها وهي الضربةُ التي أتمنى لو أعطيها لكلّ منهم ليخرجوا مِن الحالة التي تلبَّستهم.

اقتربتُ من موضعِ الرّياح؛ فسلمتُ لها جسدي، أحدثتْ ضغطًا فخلخَلتْني وأمرَضتني لكنّي لم أنْتبه إلّا لتلك الأجساد التي فاجأتها صدمةُ المطبّ الهوائي فسقطت أرضًا وتهاوتْ معها أسلحتُها وأفكارها، تحقّقت أمنيتي.. وصفعتُهم بغيرِ يد!

اسْتقرّت الأسلحة بأرضي؛ فتعرّت أرواحُهم من دفاعاتها.. هكذا كانتْ مشاعرهم تتوارى خجلًا وامْتهانًا، تختبئ أنظارُهم عن بعضها، وتتشقّق ألسنتهم دونَ كلمة حتى قالت «سميّة»:

- وكأنّه زلزال..

شجّعتْ فيهم الكلام؛ فسأل «عربي»:

- الجميعُ بخير؟

- بخير..

- بخير..

- كلّنا بخير.

السلاحُ الآن مُستقرّ بيدي «مروان» المغربي، لم تعدْ فوّهة المسدس مرفوعةً على الضّخم كما كانت.. ربّما لأنّ نظراته لم تعدْ شرسةً كما كانت، فقط «المغربي» يُمسكُه.. لا ليهدّد به الخاطفين، بل ليضيفَ على نفسه أمانًا يفتقده.

سألَ واحدٌ منهم باستغراب:

- مَن نزعَ ذراع حقيبتي؟

تقافزَتِ الاتّهامات بينهم، وتدافعتِ التفسيرات، حتى ظهرَ صوت «طلال» السعودي يهمِس:

- أردْتُه لأدافعَ به عن نفسي.

- ضدّ مَن؟ والخاطفون مكبّلون.

قفزتِ الإجابةُ الواضحة على شفتي «السعودي»، لكنْ قبل أن تخرج حرّة أغلق فمَه، ووجْهُه محمّر مِن الحرج، ظلّت العيونُ تبحث عن مَن يُملأ فراغ الصمت..

- أتْعرفون كلّما أنظرُ إليكم.. ماذا أرى؟

هكذا سألَ الضّخمُ هازئًا، وصوتُ ضحكِه يعلو في فضاءِ السّكوت، فزع الجمعُ وتوحّشت نظراتُهم، همّت «سميّة» بالقيام إليه، أمسكَ «عربي» بيدِها وأجلسها غصْبًا، أكملَ القاتل:

- أرى.. أولاد حرام.

تحاملَ «أبو ليلى» على نفسِه وقلبِه الذي يبذلُ أصعب نبضاته..

- أعوذُ بالله منكَ ومِن لسانِك.

هُرِعَ البعضُ إليه طالبين منْه السكوت رأفةً بجسده، أمّا الضّخم فقد أكملَ غير آبهٍ:

– مهْما حاولتم.. ستظلّون مجموعةً من اللّقطاء، جئتم مِن خطيئة، وحياتُكم فينا خطيئة.

أصابتْ كلماتُه وترًا يئنّ في نفوسهم؛ فازدادَ الخجلُ فيهم، ومِنهم، دافع أحدُ السامعين:

– كوْننا أيتامًا عارٌ على هذا المجتمع المِثالي إذًا!!

ابتسمَ الضّخمُ استهزاءً، وعقّب:

– العارُ أنّكم تحاولون الحياةَ وكأنّكم أسوياء عُقلاء مع أني أعلمُ وأنتَ تعلم، وكلّكُم تعلمون كذلك.. أنّكم أسوأ الناس فكرًا وخلقًا وعملًا، كيف يتوقع ذلك الرجلُ الذي أحضركم للعمل عندَه أنّ فرصةً كهذه تصلح معكم، وأنّ أمثالكم يستحقّونها؟

– لأنّنا بالفعل نستحقّ.. أمثالك هُم فاسدو العقولِ والقلوب.

– كيف تظنّ أنّ خطأ آبائنا يحدّد هويّتنا!؟

– أنا لستُ صورةً عن أبي.

– وأنا لستُ مرآةً لأي أحد.

أخيرًا توقّفت دماء صاحبي عنِ الفوران وهدأ جرحُه، زمجر الضّخم غاضبًا:

– هويّتكم هي آباؤكم، مهْما تملّصتم واخْتبأتم.. هُم هويّتكم، يكفي أنْ أقرأ في ملفّاتكم.. «الأب.. غير معلوم!»

لأعلمَ يقينًا أنّ هويتكم مفقودة.. ضائعة بين الناس.

صاح «عربي» بقهرٍ:

– لماذا تجعل مِن اليُتم سببًا؟

تدخّل صوتُ «هتّان» القطري:

– أراكَ تنصّب نفسَك علينا قاضيًا؟!

بمكرٍ أجاب الضّخم:

– بل أنا الجلّاد.

– وماذا تعلم عنّا لنكون بنظرِكَ خطاة؟!

– أجل ماذا تعلم عنّا؟ أنا مثلًا أعرف أبي وأمي، لكن بعد موتهم رُبّيتُ بدار أيتام.

– وأنا كذلك عشتُ مع أمّي حتى الخامسة، بعدها خُطفتُ مِن بين يديها، وتنقّلتُ بين أيدي السارقين حتى استقرّيتُ أخيرًا بيدِ الحكومة.

– وأنا لم يملكْ أبي المال؛ فوضَعني أمام مسجد.. هكذا كتب عذرَه برسالةٍ داخل غطائي.

– وأنا وجَدوني بالجَبل.. ولو أنّني فاسدٌ كما ترى؛ لأمَرَ الله الذئاب فأكَلتني، لكنّ جسدي كُتب له الحياة..

– فمَن أنتَ لتقرّر مَن يستحقّ.. ومَن لا يستحق؟!

ووالله، إنّ الحقّ الآن أنْ نقتلكَ جزاءً لقتلِكَ فينا..

– نعم.. وجَبَ قتلك.

– وأنا أوافق.

هنا، قطعَ «أبو ليلى» أخيرًا ذلك الجدال الذي توسّع وتشعّب داخل النفوس وخارجها.

– لكنّنا لن نفعل.. لنْ نقتل أحدًا.

اسْتنكرَ الجمعُ عليه، وعلَتْ فيهم الاعتراضات، أكمل «أبو ليلى»:

– القَصاص يا ولدي له شُروط، قال العلماء: أربعةٌ إلى الحاكم.. الزكاة، والصلاة، والحدود، والقضاء.

– يا عمِّ.. هذا الرجل قَتلَ أمامنا ثلاثةَ أشخاص، واللهُ قال: {ولكم في القصاص حياة}.

– وأينَ الحياة يا بني في أخذ كلّ فردٍ حقّه بيده؟! وما دمتَ أنتَ ستقتلُه وتأخذُ حقك؛ فمَن ستقتل «سميّة» لتأخذ حقّ «رحمة»؟

تعثّرت أنفاسُ «أبو ليلى» فتوقّف دقيقةً يجمع ما يستطيع من شهيق، ثمّ يبعثر ما يستطيعُ مِن زفير، حتى هدأت روحُه قليلًا؛ فأكمَل:

– وإنْ قتلَ هو عشرَ رجال؛ فمِن أين سنأتي لكلّ واحدٍ مِن أهل القتلى بقاتلٍ ليأخُذوا قصاصَهم منْه؟ ولعلّ حينها يتطاولُ الأمر لقتل ابن القاتل أو زوجته أو والده أو أمّه!

سكتَ مِن جديد، وقد ارْتسم الألمُ قويًّا على وجْهه، وتحجّرت أسنانُه في مكانها، والأحرفُ تخرج مِن بين شفتيه هربًا:

– القَصاصُ للحاكم أو مَن ينوبُ عنه فقط حفظًا للأرواح.. هذا هو ما أمرَ به الدّينُ يا ولدي.

أنْهى جملتَه، واستحالَ جسدُه شحوبًا لا احْمرارَ فيه، والألمُ ينتفض في نبَضاته وكأنّ روحَه تذوبُ بين أضلاعه؛ فيتهافتُ لها جسمُه تهافتَ القلب المُمزّق، نادى الطيّار:

– أصلحتُ جهازَ الاتصال.. لن تحتملَ الأسلاكُ أكثرَ من دقيقتين.

ومِن الأرض إلى حيثما أنا.. جاء صوتُه مهشّمًا:

– «أبو ليلى».. أجبْ يا «أبو ليلى»، رُدّ يا غالي.

أمسَكَ «السعودي» الجهاز، وهتفَ بلوْعة:

– هو هنا، لكنّه بغيْر وعْيه.. لم يبقَ بحياتِه الكثيرُ يا سيدي.

أتتْ أنّةُ قهرٍ وفزع، والصوتُ يصرخُ به:

– ماذا تقولُ يا فتى؟ أعْطني صاحبي ولا تكذبني فيه.

– والله يا سيدي هو بالكادِ حي.

فأتى أنينُه يُشبه أنينَ الواهة الثّكلى، حتى أنّ سامعه ليبكي لبكائه، ويتوجّع لمصابه وهو يسمعه ينادي نداءَ الحزانى..

– يا «أبو ليلى»، قُم وأجبني يا غالي.

خشعتِ النّظرات، وتوتّرتِ النّبضات، كلّ امرئ هالكٌ لكنّ هلاكَ الصاحب في زمنٍ ندرَ فيه الصديق.. ألَم فوق ألَم!

ومثلي لا يعرفُ الألم، لكنّي أسمعُه في صوتِ صاحبي، وفي تزلزل آهاتِه وصراخ كلماته، اللّهم لطفًا.. اللهم لطفًا.

أفلحتِ الرّوح أن تتماسكَ دقيقة؛ فنادى:

– يا «أبو عُمر»، كيف أنتَ؟

فهُرع صوتُ صاحبي حنينًا إليه:

– بل كيف أنتَ يا «أبو ليلى»؟ ليتَني ما سمحتُ لكَ بالخروجِ في هذه الرحلة.

- واللهِ إنّه لقدر الله.. كان الموتُ ليَأتيني في بيتي، لكنّه أرادَ لي الشهادة.

فأجابَ مُبشّرًا:

- والله تستحقّها.

- لا تنسَ الوصية..

على درجاتها يا «أبو عُمر».. على درجاتها.

بكى «أبو عُمر» واشتدّ نحيبُه:

- أبشرْ يا غالي.. ولا تنسَ كذلك اتّفاقنا.

ثُمّ نهْنَه بقلبٍ صديع:

- يا صاحبي، ستسبقني لـ «عُمر»..

عانقْه أولَ ما تراه، وضمّه ضمّة قويةَ لأجلي..

امسحْ شعره ووجْهَه، وقبّل بين عينيه لأجلي..

أجلسْه على قدمكَ وحدّثه عن حبّه بقلبي..

وأخبره.. أنَّ أباه يشتاقُ له، وأني خطبت له «ليلى».

خرجتْ شرارةٌ قوية من الجهاز؛ فأماتَته! لم نعدْ نسمعُ أنينَه بعد الآن. أُبصر الآن الحياةَ وهي تنسحبُ من «أبو ليلى» رويدًا رويدًا؛ فأيقنتُ أنّ رسول

الموت قد حضَر، ليتَ لي لِسانًا وفمًا وعينيْن؛ لكنتُ قبلتُ يديه وتذلّلتُ إليه، ولأغرقَتْ عيناي بالعَبرات قدميه، ولوْ أنّ الله خلقَ له قلبًا؛ لأشفق عليّ وردَّ صاحبي إليّ، لكنّ الله خَلَقهُ لا يَعْصِيه ما أَمرَه.

وبغيابِ الرّوح؛ غاب الألمُ عنْ أطرافه، فابتسمَ «أبو ليلى» ابتسامة جمعت كلّ معنى من معاني الرّضا، وأسكنَتْه في طيّاتها، مدّ يدَه اليمنى حتى حائطي؛ فأسندَ كفّه إليه وكأنّه يعلم أنّي أتقطّع حزنًا عليه، فأراد أنْ يهدّئني، مدّ يدَه اليسرى إلى أقربِ الشّباب منه، أمسكَها وشدّد عليها، خرج صوتُه ضعيفًا:

- كلّكم اتّفقتْ إجاباتُكم يا ولدي.. كلّكم استحقّقْتكم الفرصة.

ثُمّ لم يقلْ شيئًا آخر.. فقط سكتَ سكتةَ الموت!

ليْتني لم أحملْ يومًا بشرًا.. ليتني كنتُ غيْمة، وبكلِّ قطرة أُرسِلها تخرجُ نبتة، وسُقيا، ودعوةُ أمَل.

***

الأرض، عام ٢٠١٧

بالفجرِ، تلكّأت على وجهي مجموعاتٌ من ذرّاتِ التراب كانت قدْ فارقتني ذاتَ نهار، بِتلهّفٍ استقبلتُ بعضي العائد إلي، فالصاحبُ الحقّ ضلعٌ لا يُفارق يومًا إلّا ويعود! أخشى أنْ يحلّ صباحٌ لا تعود فيه أجزائي المُتفرّقة بيني وبين السّماء، أخاف ذلك البُعد، وأهابُ كلّ أنواعِ الفراق!

تنبّهتُ من أفكاري لخطواتِ خافتات قدْ أقلعت من أحدِ الأركان، تبعتْها أقدامٌ أخرى، وأخرى، وأخرى... حتى اكتملَ العددُ ستّة أجسادٍ تتحرّك على عُجالةٍ، وبجوارهم عجلاتٌ دائراتٌ بأقلّ قدرٍ من صوت! هَدَجوا باتّجاه بوّابات القرية خارجين، فلمّا عبَروها أسرعتْ خطواتهم ودبّت بها الحياة، أصواتُهم تتوقُ إلى اقتحامِ المُستقبل وتحطيم كلّ أغْلاله، ركبوا درّاجاتهم وانْسابوا بها فوقي تصحبهم اللّهفة، وتتجسّد بكلماتهم وهمساتهم وضحكاتهم، كلّ ما اهتموا به هو أنْ لا يكتشف أحدٌ غيابهم.

ومن بعيدٍ، تراقبهم عينُ «لامبورجيني»، المسافة بينهم دائمًا ثابتة، لا تزيد ولا تقلّ، وصلوا إلى القريةِ الحديثة.. دخلوها فَرحين، استقبلَهم أصحابُها استقبالَ الفاتحين، المُخْلصين العائدين، اصطحَبوهم لمديرِ القريةِ وسيّد أمْرها، وبخطواتٍ واثقاتٍ تتكِئ على عكّازٍ من خشبٍ، وقفَ أمامَهم وقال:

- مرحبًا بكُم في قرْيتنا المتواضعة.

لم تكدِ الجملةُ تنتهي حتى أحْدثت ساعة يدِه صوتًا عاليًا مُدوّيًا كصافرة الإسعاف، لم يتوقّف حتى أسرعَ المُدير بالقدرِ الذي يسمحُ به عكّازه إلى خزانة على الحائط وضغطَ بعضَ أزْرارها. حينها توقّفت السّاعة عن الصريخ، دخلتْ مُساعدته في نفس الوقت، ثمّ اتّجهت إليه، وقالتْ له بصوتٍ خفيض:

- عرفنا مكانَ «حسن».

حينَها تولّى «كاديلاك» زِمام الحديث:

- سعداء بتواجدنا هنا.

انتبَه المُديرُ له فورًا بعد خروجِ مُساعدته، سأل بكلّ اهتمام:

- نحن أكثرُ سعادة، متى ستصلُ حقائبكم؟ وكم يومًا ستمكثوا معنا؟

- الحقيقة أنّنا لن نقيمَ بالقرية.. فقط نحتاج للدخول إلى الإنترنت لمُتابعة أعمالنا.

- الإنترنت خدمة واحدة بسيطةٌ من ضمن خدماتٍ عديدة بالقرية.. أستطيع إعطاءكم رحلة إرشادية بأنحاءِ القرية كلّها حتى تكونوا على اطّلاعٍ بكلّ المُميزات والخدمات التي لمْ ولن تروها بأي مكانٍ آخر.

- لا داعي أبدًا.

تدخّلت «مرسيدس» بالحوار قاطعةً حديث «كاديلاك»:

- نحتاج فقط خدمة الإنترنت، ووقتُنا ضيّق يا سيد؛ لذا نرجو منك مُساعدتنا في هذا الأمر فقط.. وبالطبع بإمكاننا دفع المال بالمقابل.

تردّد صوتُ المدير بحنجرته، ثمّ أجاب:

- يبدو أنّكم لم تذهبوا إلى قرية سياحية مثل قريتنا من قبل؛ لذا دعوني أحدثكم باختصار..

وقبل أنْ يهمّ أحدٌ منهم بالاعتراض، أكمل:

– حصلنا على تلكَ القرية المصرية عامَ ألفين، وتمّ الانتهاء من بنائها عام ألفين وخمسة عشر على أحدثِ التصاميم العالمية وأكثرها روعةً وجمالًا، كذلك أُنشِئت بها أقسامٌ خاصّة تضمّ مُجسّمات عن أشهر أبنية العالم وأندرها وأعجبها؛ ممّا جعل قريتَنا الصغيرة محطّ أنظار السيّاح من كلّ البلاد، فإن زُرتنا؛ فكأنكَ زرتَ العالم كلّه!

تدخّلت «بورش» الصغيرةُ في الحوار:

– لا أظنّنا نحتاجُ لمعرفةِ كلّ هذه التفاصيل، فقط نحتاج الإنترنت.. مِن فضلك اسْمح لنا بالدخول.

– لا أظنّكِ فهمتني آنستي الصغيرة.. ما قصدتُه من حديثي هو أنّ القرية بإمكانها إفادتكم وإمتاعكم بأكثر من مُجرّد خدمة الإنترنت، فنحنُ بإمكاننا إعطاءكم العالم كلّه.. هنا.

تحدّث «فيراري» بحزم:

– ونحنُ لا نريد العالم كلّه، نطمع فقط بالإنترنت.

زفرَ المديرُ بقوة، وخرج صوتُه غاضبًا بعض الشيء:

– حسنًا.. كما تشاؤون، لكنّ القرية ما زالت تُعدّ قيدَ التجربة؛ لذا أحتاج منكم تصويرَ فيديو معنا، والتحدّث عن مُميزاتها وخدماتها وتقدّمها، فالقرية لا تقلّ أبدًا عن أي منطقةٍ سياحية عالمية.

قامَ «كاديلاك» وتحرّك تجاه المدير هاتفًا:

- لكَ هذا.

تحرّكت الأقدامُ كلّها تجاه البابَ راحلة، لكنّ صوتَ المدير استوقفهم قائلًا:

- لدينا شرطٌ واحد فقط..

عادتِ الأقدامُ إليه ثانية؛ فأكمل:

- حتى يستطيعَ الشباب العاملون مساعدتَكم؛ فلا يُسمح بالتحدّث إلّا باللغة الإنجليزية فقط. وذلك حتى يستطيع الجميعُ كذلك مساعدة بعض والتعرّف على بعض.

- لَم أفهم!

هكذا علّقت «بورش»؛ فأوضح المدير:

- اللغةُ الإنجليزية هي اللغة الأولى دوليًّا، لذا حتى تتناسبَ قريتنا مع معايير التقدّم؛ وجب أنْ نتميز بأمرٍ لم يفعله أحدٌ قبلنا.. وهو أن القرية بأكمَلِها لا تتحدّث إلّا بتلكَ اللغة وفقط.

- وماذا لو لمْ نقبَل؟

- الحقيقةُ أنّ الأمر ليس اختياريًّا، فكلّ ضيوف القرية يرتدون ساعة كالتي أرتديها بمعصمي، وهي مُبرمجة على الْتقاط أحرفِ اللغة الإنجليزية

فقط لصاحبها، فإذا ما تلفّظ بأي حرفٍ آخر بلغةٍ أُخرى؛ أخرج الجهاز صفيرًا حادًّا كالذي سَمعتموه عند بدايةِ حديثي معكم، والذي لم يتوقّف حتى أغلقت الجهاز يدويًّا عن طريق آلةِ التحكّم الرئيسية.

– وماذا لو لم نقبلْ ارتداءِ السّاعة؟

– حينها سأُضطر آسفًا عدمَ السماح لكم بالدخولِ إلى القريةِ، فنحن نسعى لهدفٍ عظيم وأنتم باعتراضكم هذا تُفسدون كلّ ما تعبنا للوصول إليه؛ فتجربة اللغة الإنجليزية هذه لو أفلحت؛ ستكون أحد أهم مزايا قريتنا على مستوى العالم كلّه.

حمحَمَ البعضُ، وهمهَمَ البعض الآخر حتى استقرّوا أخيرًا على الموافقة بارتداء الساعات، خرجوا جميعًا إلى النادي الرئيسي بالقريةِ، وجلسوا على الطاولات المُهيّئة بوصلات تجري من فوقي تحمل بداخلها أسلاك الإنترنت!

أمّا بغرفةِ المُدير، فقد دخل «لامبورجيني» إليها، وبعد كثير حوارٍ وجدال؛ سأل:

– وماذا سيحدثُ لو أخذتُ الساعة منكَ، ثمّ خلعتُها من يدي، وأخفيتُها بجيبي مثلًا؟

– أولًا.. الساعة لا يُمكن خلعُها إلّا عن طريقنا لأنّها تحمل قفلًا رقميًّا، ثانيًا.. الساعة بها شريحةٌ ذكية تحمل كلّ المعلومات التي تهمّك، بمعنى أنّنا

نُبرمجها على مساعدتِك في الوصول لأقصى درجاتِ الاستمتاع، فقط كلّ ما عليكَ هو أن تُظهر الساعة أمام أي مكانٍ تُحبّ الدخول إليه، وأجهزتُنا الحديثة تتعرّف عليك مباشرة، وتوفّر لك النظام الذي يناسبك، كأن تختار لك نوعيةَ الطعام الذي تحبّه أو الموسيقى التي تشتاقُ لسماعها.. كلّ هذا يتمّ عن طريق هذه الساعة الصغيرة؛ لذا يجبُ على كلّ الزوار ارتداؤها، ومَن نجده لا يملكُ واحدة؛ إذًا فقد دخل خلسة ويُطلَب منه فورًا مُغادرة القرية.

تحرّكت أقدام «لامبورجيني» مُبتعدة عن المكتب قائلًا باقتناع:

– أعتذر على وقتك سيدي، للأسف أنا لا أُجيد اللغة الإنجليزية؛ لذا لا أظنني أُناسب المكان.

ثُمّ غادر القرية كلّها!

وعند الشّباب، علا صوتُهم بلسانٍ جديد كما أمرهم مديرُ القرية، قال واحدٌ منهم:

- « It's good that we talked with the company.»

سأل سائل:

-« Why? is there a problem?»

فأجابه الأول:

- « No، not yet.»

فسأل ثانية:

- «so whats up?»

أجاب «كاديلاك» وكان هو المتحدّث الأول:

- «I think there are those who object to our new positions!»

تعجّب «فيراري»:

- «How did you know?!»

أوضح «كاديلاك»:

- « I received news of delays in the processing of our offices and the work entrusted to us.»

أكمَلت «مرسيدس» على حديثهِ:

- « Iam also came to me some information about sabotaging parts of the buildings that we have recently repaired.»

تدخّلت «بورش» بانزعاج:

-« Who benefits from all this?»

أجاب « چجوار» سؤالها المُضطرب:

- « I do not know‹ but I am afraid that our position with our family will be affected by these things.»

أكملت «مرسيدس» بفزعٍ:

- «Followed by the destruction of all our hopes and dreams.»

بحزمٍ عقّب «فيراري»:

- «Two days left to return...»

خرس الجميع؛ فأضاف:

- «Hopefully they will pass quickly.»(١)

***

(١) قال واحدٌ منهم: من الجيد أننا تحدّثنا مع الشركة.
سأل سائل: لماذا؟ هل هناك مشكلة؟
فأجابه الأول: لا، ليس بعد.
فسأل ثانية: إذًا ما الأمر؟
أجاب «كاديلاك» وكان هو المتحدّث الأول: أظن أنّ هناك مَن يعترض على مناصبنا الجديدة!
تعجّب «فيراري»: كيف علِمتَ؟
أوضح «كاديلاك»: وصلتني أخبار عن تأخر في تجهيز مكاتبنا والأعمال الموكلة إلينا!
أكَملت «مرسيدس» على حديثِهِ: وأنا كذلك جاءتني بعض المعلومات عن تخريبٍ لأجزاء من الأبنية التي قُمنا مؤخرًا بترْميمها!
تدخّلت «بورش» بانزعاج: مَن المستفيد مِن كلّ هذا؟
أجاب « چجوار» سؤالها المُضطرب: لا أعلم لكني أخاف من تأثر مكانتنا عند عائلتنا بهذه الأمور.
أكملت «مرسيدس» بفزع: وما يتبعه من هدم كلّ آمالنا وأحلامنا.
بحزمٍ عقّب «فيراري»: تبقّى يومان على العودة..
خرسَ الجميع؛ فأضاف: لنأمل أن يمرَّا سريعًا.

أمّا ذلك الـ «لامبورجيني» فقد قفل عائدًا من ذات الطريق الذي قد مشى فيه، تثاقلت أقدامُه وهي تنبسط من فوقي فكأنّما هو يعثر عثراتٍ لا ينتبه لها، ويسلك مسالكًا لا يدري معالمها حتى وصل إلى بقعةٍ مُختبئةٍ وسط الجبالِ وهي من أحب بقاعي إليَّ؛ فوقفَ بها لا يدري كيف أتى ولا كيف وصل؟! أكاد أشعر بنبضاتهِ المبهوتة تسري بجسده من إثر تلك الطبيعة الحاضرة، رياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغِمِها، وناطقها وصامتها، فصدرت منه آهة إعجاب، وخرج من صدره زفير تعجّب، ولو أنّ الله قدّر لي معرفة حديث نفسه وأزال سبحانه ذلك السّتار المسبل بيني وبين قلبه؛ لوجدته يسأل.. «إن كانت تلكَ هي الدنيا فكيف بجنةِ الآخرة!؟»

تحرّك بخفةٍ وكأنّ الهواء يحمله عليه، بضع خطواتٍ حتى وصل إلى بوابة من حديد، طرقَ عليها طرقًا خفيفًا؛ لا مُجيب، فأعاد طرقه من جديد لكن بقوةٍ وشدة، حينها فُتِحَ الباب الذي لم يكن بالحقيقة مُغلقًا أبدًا، فسار منه دقائق معدودة حتى وجد بابًا آخر فسمِع من خلفهِ نَأمَة حزينة، اقترب حتى ألصق قدمه بهِ؛ نادى.. «من الباكي؟»

فلم يُجبه أحد، وتوقّفت نغمةُ الحزن كذلك، فنادى من جديد.. «لا بأس عليكم.. سمعتُ البكاء؛ فأردتُ الاطمئنان»

لازال الصمتُ هو الإجابة، ولو أنّ الله هدم تلك الستائر التى تحول بينه وبين رؤية الباكية؛ لوجدَها مُحمّرة العيون ممزقة الفؤاد، يتناثر من وجهها

وشعرها الماء؛ فيضرب فوقي كأقسى ما أجدُ من الضرب وكأنّها تُرسل مع مائها حطبَ قلبها! عجوزٌ ترتعش قدمها وتتخبّط أطرافها، أراها ما دام ماء الوضوء لا زال عليها جاريًا، صوت «لامبورجيني» يزيد بصدرها الفزع؛ فتلملم حجابها وتحشره بفمها علّها تكتمُ آهةَ الوجْد التي تغلبها وتتفلّت.

وعند الشّباب، خطوا بطريقِ البحر يتملّك حواراتهم صمت التفكير، لم ينتبهوا أنّ أقدامهم تأخذهم لطريقٍ غير الطريق، فتدفعهم باتجاهِ رمال لم تتزين لزوّارِ القرية، وشاطئ لا يلمع سطحه خصيصًا لأجلهم، التفّت أقدامهم تبحث عن طريقِ العودة إلى القرية الحديثة، سارت الأقدام ساعة أو يزيد، حلّ التعب وتمكّن الإرهاق منهم فسقطوا لاهثين، هتفت «بورش» حانقة:

– ليتنا ما أتينا لهذه القرية.. الآن كيف سنعود؟

حتى إذا ما انتهت جملتها فزِعَت لصوتِ ساعتها، صافرة قوية عالية تُسبّب قشعريرةً وألمًا لها ولِمَن حولها، أرقل إليها الجميع، تصرخ بانفعالٍ:

– اخلعوها عنّي.. اخلعوها بسرعة.

الأقدام كلّها التفّت حولها، كذلك الأصوات:

- «I can’t take it of!»

- «Me too!»

- «She spoke in Arabic.»

- «The man did not lie we must speak English all the time.»

- «What is the solution now?»

- «We must go back until someone stops this noise.»

- «But we do not know the way!»

- «Let's try at least to trace our footprints.»

- «Are you kidding? We walked in circles for almost an hour!»

-« If we do not، we will remain at the mercy of»

«this noise until the clock battery is completely discharged.»[1]

❉❉❉

---

(١) – لا أستطيع.
– وأنا كذلك لا أستطيع خلعها.
– الرجل لم يكذب، يجب علينا التحدث بالإنجليزية طوال الوقت.
– لقد تحدّثت بالعربية.
– ما الحلّ؟
– يجب علينا العودة الآن حتى يوقف أحدهم هذا الضجيج.
– لكننا لا نعرف الطريق!
– لنحاول على الأقل تتبع آثار أقدامنا.
– أتمزح؟ نحن نسير في دوائر لما يقارب الساعة!
– إن لم نفعل سنظل تحت رحمة هذا الضجيج حتى تفرغ بطارية الساعة تمامًا.

«أمّا قبلُ»

ترقرتْ بعض المياه المالِحات من عيني «صَلاح» وهو يُخبّر من طبيبهِ خبرَ استحالة حمل زوجته، ارتجف فؤادُه.. انتفض، ارتعشت شفتاه بحديثٍ غير مفهوم، أخيرًا سُمِعَ لحديثهِ معنى ولمطلبهِ مغزى..

«إلهي لا أريدُ ردّ القضاء، ولكني ألتمِسُ اللطف فيه»

ردّدها كثيرًا حتى لم يدرِ كيف عادتْ به قدماه إلى بيتهِ، فزِع من موضعِه.. فكيف يواجه زوجته؟

وقفَ على عتبة داره تتخطّفه الرهبة وتدفعه الرغبة، يحنّ إليها، وقوفًا لديها، حنانًا وخوفًا اجتمعا عليها، لكنْ لا مفرّ من عذاب الكلمات التي سينطق بها.

ساعات مرّت بلا أحرف، فقط ينظرُ إلى سكونِ جسدها ورقّة أنفاسِها، حركات من يدها متتابعات.. أوشكَت على الانتهاءِ من صنع أول قفّاز لصغيرها الذي تتمناه.. بحملها الذي تنتظره.. من زوجها الذي تحبّه.

ظلّ على متابعتِه لها دون أن يجرؤ على الكلام.. وكيف يفعَل؟ وهو بمجرّد أن ينطِق لسانه خبرَها ستنطفئ شعلة روحها، وأمل قلبِها، بل ربما أودى بزواجهِ كله إلى حافة الهاوية!

سكت كثيرًا، همهَمَ قليلًا، ركنَ طويلًا إلى الصمتِ، بالنهايةِ هَمَس:

– اليوم علمتُ أنّ الأمر ليس لله!

بصدمةٍ هتفت:

– استغفِر الله يا «صَلاح»، بل الأمرُ كلّه لله.

– له أمر الخير، والشرّ أمره بيد الإنسان!

– بل أمر الإنسان كلّه له خير.. فاستغفر الله.

– حسنًا.. العطاء مِنه والمنع من الإنسان!

– بل العطاء والمنع من الله.. فاستغفر الله.

– إذًا الفرح منه والحزن من الإنسان!

– بل الحزن والفرح جند من جنود الله.. فاستغفر الله.

– إذًا الرزق منه والرزء من الإنسان!

– بل أرزاقنا وأرزاؤنا من الله.. فاستغفر الله.

– إذًا الأطفال منه والعقم من الإنسان!

حينَها توقّفت عن الردّ ونظرّت إليه، ابتسمَت بانكِسارٍ؛ فقد علِمَت ما عَلِم، ضمّت يدها إلى صدرها وكأنّها تكتم بداخله صراخًا هادرًا، ناقمًا

غاضبًا، تخشى أن يتفلّت منها وهي تُجيب بصوتٍ آواه الوهَن:

- بل كلّه من الله؛ فالحمدُ لله.

***

لم يعلَم «خَليفة» وهو يخطو بكلّ ثقةٍ من بابِ منزلِه أنّ زوجته قد علِمَت كلّ شيء، خسارة أمواله.. بيع نصف أسهمه بالشركة.. إغلاق حساباته البنكية..

فقط ظنّ للحظةٍ أنه سينجو، وقد كان بلا شك حلمًا صعبَ المنال.

أدامَ نظرَه إلى وجهها، وهو يتخيّل حديثًا من طرفهِ وهجومًا من طرفها، لكنها ومع غرابة الموقف.. جعلَت الصمتَ سيد المجلس؛ فلا هي قالت ولا أفاضت.

أخذ نفَسًا قويًّا عاليًا صاخبًا وكأنّه يتهرّب من الأحرف التي تتقاتل لتخرج من بين شفتيهِ، تكلّم بعد طول خوف:

- لم أعتقد أنّ الأمر سيسوأ هكذا وبسرعة! كانت صفقة مضمونة النجاح يا حبيبتي.. أقسم لكِ.

انتظر منها ردًّا، إيماءة برأسها، حركة من كتفها.. أي شيء، لكنّ الصمت سيطر مِن جديد؛ أكمل باضطرابٍ:

– يعزّ علي إغضابك.. أرجوكِ تفهّمي أني أردتُ مضاعفة أموالنا ولم تكن نيتي أبدًا خسارة هذا الكمّ من المال، لهذا اضطررتُ لبيعِ بعض الأسهم الخاصة بنا، وأعدك أنني...

هنا صرخَت به:

– كفاكَ.. لا أريد سماعَ أيّ من أكاذيبك بعد الآن، لا أدري كيف وثقتُ بك؟ سأغادركَ يا «خَليفَة» وسآخذ ابني معي.

اقتربَ منها محاولًا احتضانها؛ لكنها بعدت عنه؛ فقال برجاءٍ:

– فقط أعطني فرصة وسأصحّح كل شيء، أنا لا أستطيع خسارتكما، لا أحتمل العيش دونكما، فقط ثقي بي مرةً أخيرة.. أرجوكِ.

– لا أستطيع الثقة بكَ بعد الآن.

– صدقيني، سأعوّض كلّ ما خسرناه.

بعظيمِ شكٍّ سألَت:

– وكيفَ هذا؟

اقترب منها والبسمةُ تعلو وجههُ هامِسًا:

– ألم تعلمي بعد يا زوجتي الحبيبة..

بعد وفاة زوجة «إسماعيل» وابنه، ونبأ استحالة إنجاب زوجة «صَلاح»؛ صرتُ أنا الوريث الوحيد لشركائي.

***

الطـائـرة، عام ١٩٩٥

أحسبُ أنّي ما قُدّر لي من القلوب نبضاتها ولا خفقاتها لكنّي فطنتُ الحب؛ حيث أنّ هذا المعنى لا يحتاج لقلبٍ كي يحْيا، بل يحتاجُ إلى ضلوعٍ يسكن فيها؛ فتحتويه ويحْتويها، وإنّ ضلوعي هي أرْكاني، وقد عقد الحبّ بين أركاني وقلبِ صاحباي عقدًا لا يحلّه إلّا قيام الحساب والوقوف أمام العزيز، والوهاب...

وإنّي لأبصر أركاني الآن؛ فأراها قد تبدّلت وتشوّهت؛ فغاب صمودها وثبوتها، وأوحش سقفها وأرضها، فهذا ما عناه انفطارُ الضلوع!

– و»أبو ليلى» أيضًا.. أنتم مَن قتله.

أتى صوت الضّخم عابثًا وكأنّما عمدَ إلى سهمٍ رائشٍ فأصَمَّ به كبد الشباب؛ فقاموا عليه وأخذ أحدهم بناصيتهِ يجرّه إليه، صرخت «سميّة» تنهاهم عن الانجراف وراء الثأر.. لكن هيهات هيهات.. تكالبوا على ضربه وعقابه، خمسة تناوبوا على تسديد اللكمات لوجهه وجسده، انكمش الخاطفون الآخرون خوفًا من بطش الباطشين، وقد سكنهم غضبُ الانتقام، فحين يُملّك الغضب؛ إذًا فقد تملّك الشيطان!

نادى الطيّار:

- يا شباب اصبروا.. فقد بقيَ أقل ممّا مضى.

هتف «القطري»:

- أجل.. صبرًا، ودعوه للقضاء.

اعترضَ «السعودي» وهو يجذب المسدسَ من يدِ «المغربي» ويرفعه بوجْه الضّخم صارخًا:

- والله إن قتلَه حقّ، ألم ترَ؟ ألا ترى؟

تدخل «عربي»:

- كلّنا رأينا، لكنْ يجب الانتظار.

- كيف لا تغضبوا لأجلِ «أبو ليلى»؟ هل أنا وحدي الحزين على الرجل؟

تدخلت «سميّة» غاضبة:

- وأنا؟ ألستُ حزينة على «رحمة»؟ لكني لا أفعل ما تفعل وإن كنتَ تحزن على «أبو ليلى» حقًّا لنفذتَ كلمته في حقّ القتل.

- نعم.. لن نفعل، نحن الآن في ميدانٍ مع عدوٍّ قاهر جبّار نتعذّب من جوره وظلمه وهلاكه فينا واستِطَالِه علينا بقوته وكثرته، فإذا ما جعل الله

القوة بأيدينا؛ فالأجدرُ بنا ألّا نفعل ما يجعلنا مثل العدو في القهر والتجبر، عسى أن يرى الله فينا الرحمة؛ فيُثبّتنا عليها، وأن يرى بقوتنا صبرًا وبأسًا وحقًّا؛ فينصفنا ويقصم قوة الظالم علينا.

- لِنتفق بالله عليكم.

- حسنًا.. نستطيع أن نتّفق.

- نستطيع أن نجتمع على شيء واحد صحيح.

- كذلك قال «أبو ليلى» إنّنا اتفقنا من قبل!

- ماذا يقصد؟

- أظنّه يعني أنّ إجاباتنا اتّفقت.

لم يكد الضّخم يُلملم أنفاسَه حتى تحدّث:

- لا اتفاق بينكم إلّا على الإفساد.. أثِقُ بهذا.

أقبل «السوداني» تجاه الضّخم، وانتصب أمامه غاضبًا:

- هذا إذًا ما يزعجك! أنَّ أمثالنا قد نتفق على شيء!!

وجّه الضّخم نظراته الناقمة إليه، وصدح لسانُه بالخبث:

- أمثالكم لا يتّفقون إلّا على السوء، وهذا شأنٌ لا يدَ لكم فيه.. هذه فقط طبيعتكم.

– عدتَ من جديد لهرائكَ! ماذا رأيتَ منّا لتحكم علينا يا رجل؟

– لا أحتاج لرؤية دليل، ربّما لم تفسدوا شيئًا بعد.. لكن لا زال بإمكانكم الإفساد، فتلكَ الصفات السيئة بآبائكم هي التي جاءت بكم، ودفعتهم كذلك للتخلى عنكم! ثمّ انتقلت من آبائكم إليكم، إنها بداخلكم وفي تكوينكم، فقط تنتظر الظهور والسيطرة! ولا يمكنكم بأي حال من الأحوال تغيير حقيقتكم.

سألت «سميّة» بأسى:

– أيّ حقيقة؟

– حقيقة أنّكم الثمرة الفاسدة على هذه الأرض.

– تحاسبنا على كلِّ خطأ لا شأن لنا به!

أمسك «عربي» يدَها، وضغط عليها نافيًا:

– لا تهتمّي لكلامه.. فمَن هو ليحاسب.. واللهُ قال «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ»!

قال «المغربي» وهو يأخذ المسدس من يدِ «السعودي» ويوجّهه إلى الضّخم قائلًا بحنقٍ:

– أحزن على فكرة وجود مثلك في المجتمع، وأتساءل كيف نتشارك ذاتَ الهواء، وتسير بأجسادنا نفسُ الدماء، ومثلكَ بكل جبروت يحتقر مثلي!!

أقبل «عربي» وحاول جذب المُسدس من يدِ «المغربي» لكنّ الأخير تمسّك به وهتف غاضبًا، وعيونُه تأكلُ وجوهَ مَن حوله:

– لن يُمسكه غيري.

ابتعدَ «عربي» وتوجّه إلى الضّخم، وعاد به حيث الخاطفين الآخرين، أجلسه وهو يتممُ حديث «المغربي»:

– الأصلُ الفاسد قد ينبع منه نبتةٌ طيبة، كلّ صفة سيئة تُقابلها صفة حسنة، تُظهر وتؤكد تلك الصفة المختلفة، فلولا السيئ لما عرفتَ الجيد، فكلّ ضوء يحتاج إلى ظلّ.. ظل يسمح لكَ برؤية الفرق بين النور والعتمة.

– الحقّ والباطل.. الظالم والعادل.

– الخير والشر.. الفاسد والصالح.

التصقوا بأركاني تغشاهم غيمةٌ من سكون، أعلم من خبيئة نفوسهم مدى تخبّط أفكارهم.. فهكذا هي العبارات حين تتناثر وتتكاثر؛ فتدفع ما تدفع من القناعات بباطن الأرض، أو ترفع ما ترفع من إيمان لأعالي السّماء، كثير من الكلمات طرقت أبوابًا مغلقة منذ أزمان داخل صدورهم وعقولهم؛ أو لعلهم لم يدركوا يومًا وجودها! فقفزت الأفكارُ وهي تثور وتتعارك، كأسيرٍ ينال حريته من بعد سجنه سنين عدة.

امتلأت أرضي بالقتلى.. أربعة لا أعرف منهم إلّا واحدًا، لكنّي أغضب للأربعة، كذلك بعضهم يُماثلني في الغضب!

قلوبهم بدأت تتعارف على ذاتِ الألم، وتتشارك في الأحزان، بعد طول صمتٍ سأل «عربي»:

– ماذا عَنَى «أبو ليلى»، رحمه الله، بقوله.. إننا اتّفقنا في الإجابة؟

انتبه بعضُ الشباب، وكرّروا السؤال استنكارًا، قال «القطري»:

– ألم نجدْ أنّ إجاباتنا بالفعل على الاختبار كانت مختلفة!

– يبدو أنّ جراحه قد أفسدتْ ما تبقى من ذاكرته!

اعترضت «سمية»:

– لا أظنّ هذا.. لن نخسر شيئًا لو راجعنا السؤال وإجاباتنا مرة ثانية.

«حسنًا» قالها «عربي» وهو يخرج ورقةً مطوية من جيبه، ويُكمل:

– ها هو السؤال.. «في محافظة ما.. اشترت أسرةٌ طابقًا بأحدِ العقارات المميزة، ثمّ دعت باقي العائلة ليسكنوا معها، وبعدما وجدوا أنّ الطابق لا يسعهم؛ ضيّقوا الخناق على باقي السُكّان حتى يرحلوا لكنّ أحدًا لم يفعل؛ فبدأوا بمضايقتهم وإزعاجهم والتعدّي عليهم، ولمّا لم تُفلح أيّ من هذه التصرفات؛ فرضوا سيطرتهم على ما شاءوا من العقار غير آبهين لملكية أصحاب الطوابق أو أحقيّتهم فيها...

الآن علمتَ أن فردًا من هذه الأسرة اشترى الطابق الأسفل منك؛ فماذا سيكون تصرّفك؟»

أنهى القراءة ثمّ أخذ نفسًا قويًّا، وأضاف:

- إجابتي كانت.. «وضع شرطٍ قضائي على هذا الساكن الجديد ليرهبه في حالة إن أراد السيرَ على خُطا أسرته»

- وأنا كتبتُ.. «لا يتمّ تمليك العقار لهذا الشخص أبدًا.. فقط يُسمح له بالإيجار»

- وأنا.. «ما دام لم يخالف القانونَ بعد فلا بأس عليه»

- وأنا......

بركنٍ قصيّ.. خمسة جلسوا لمراقبةِ الضّخم وصاحبيه، فوجدوا القاتل غليظ الأخلاق فظًّا، فضحكوا منه استخفافًا واستحقارًا؛ فردّ على ضحكهم بسوء الكلام وقد تبرأت منه المروءة بعدما شربت أحرفُه من اللؤم حتى الثمالة!

أزعجتهم خسّته ودناءته؛ فقام ثلاثةٌ منهم وابْتعدوا، وقعد اثنان يتناقلان النظرَ فيما بينهما اضطرابًا، اقترب بجسده منهما ما استطاع أن يقترب، وهمس بصوتٍ كالفَحيح:

- عندي لكما فكرةٌ ستسعدكما جدًّا.

علا وجهيهما أماراتُ الاستنكار، لكنّ الضّخم سارع بالتحدّث:

– فقط استمعا ولا تعْترضا..

وانسابت الأحرفُ من بين شفتيهِ تتمايل أمامهما وتتزيّن لهما، آخذًا هو بفكرته نهجَ الناصح المُحبّ الذي أخلص لهما الولاء مُجتهدًا في العطاء، فلم يدّخر عهدًا ولم يُخفِ قولًا قد يساعده في خطته إلّا وقد أجراه على لسانه، واستمرّ يُغريهم ويحرّضهم مُكتسيًا ثوبَ الرشاد.. وإنّي والله لأجد في نصحهِ لؤمًا وفي همسه سُمًّا! لكنْ مع تدافع كلماته؛ تهافت ذلك الحاجز الذي كان قائمًا في نفسيهما بين الحقّ والباطل، العدل والظلم، الضعيف والقوي، فبغت بعض المعاني على بعض وعاشت كلّ منهما في تربة الأخرى إقبالًا وإدبارًا، صعودًا ونزولًا، حتى استطاعَ أن ينصبَ له عرشًا متينًا وحصنًا حصينًا في نفسيهما!

وفي ركني الآخر تدخّل «المغربي» قاطعًا سردَ الإجابات:

– توقّفوا.. لقد بحثنا في هذا الأمر من قبل بالفعل.

– مؤكّد أنّ هناك ما أغفلنا ذكره في حديثنا الماضي.

سكتوا دقيقةً حتى بترَها «السوداني»:

– ربّما ترون الأمرَ تافهًا.... لكنّي قبل ترك الورقة كتبتُ في آخرها.. «يجب أخذ ردّ فعلٍ بحقّ الأسرة التي استولت على العقار القديم»

هبّ أحدهم واقفًا هاتفًا:

- كذلك أنا يا «طاهر»، كتبتُ في هذا الشأن.. «وجب اللجوء للقضاء لنزع سلطة الأسرة عن العقار القديم»

- وأنا كذلك.. «الذهاب للعقار القديم وطرد الأسرة منه وتجريمها قانونًا»

- وأنا.. «الوقوف مع سكّان العقار القديم في مواجهة الأسرة المُتعدّية»

- وأنا.. «لن يفيد ما سنفعل مع هذا الفرد، ويجب اقتلاع المشكلة من جذورها.. ألا وهي الأسرة التي استولت على العقار»

قال «القطري»:

- حسنًا.. لا داعي للتكملة فقد علمنا ما قصده «أبو ليلى» بـ «اتّفاقنا».

وعاد النقاش يطغى على كلّ الأحاديث الجانبية، ومن كلّ الأركان أتَتِ الأصوات:

- إذًا الاختيار وقعَ علينا بسبب كلامِنا عن العقار القديم!!

- لكنّ السؤال لم يكنْ عنه!

- ولماذا العقار القديم مُهمّ لتلكَ الدرجة؟!

- ربما لأنّه ليس مجرّد عقار.

– معكَ حق.. وربما السرّ بالقصة نفسها، لعلّها قصة قديمة..

– أو حديثة، أو لعلّ الأمر كلّه رمز..

– أو تشبيه!

– وماذا عن الإجابات؟!

– لا أحسبهم اختاروا أحسنَ الإجابات، وفقط!

– تقصد أحسنَ إجابات الأيتام!

– ربما لا ترون الأمرَ من منظوري، لكنّي...

– قلْ يا رجل.

– حسنًا.. أنا لا أظنّ بأي حالٍ من الأحوال أنّ من يتكبّد عناء الاختبار والسفر والعمل وكلّ هذه التكاليف نبقى في نظره مجرّد أيتام.

– ماذا تعني؟

– أعني أننا لسنا مجرّد أيتام.. هُم علموا ذلك...

– وماذا يريدون منّا؟

– أن نعلم نحن أيضًا ذلك.. أننا لسنا فقط أيتام.

– ونؤمن به....

– نؤمن بماذا؟!

– نؤمن بأننا أكبرُ من كوْننا أيتامًا.

الآن كتموا حديثهم.. تشتعل على وجوههم أماراتُ التفكير، لا أحسبُ أنّ إنسانًا قد يُطلعه الله على خبيئة تلك القلوب وما مرّ من ماضيها وما يجري الآن في سريرتها ثمّ لا يسقط أمامها إشفاقًا، ولا يبكي عليها ألمًا. وارحمتاه بتلك القلوب التي تملّكتها حُرقة الشقاء وأليم القضاء، قلوبٌ لا تملك من الدنيا غير صباحها فإذا أتى المساء ملكته ما دام في سمائها، ارتضوا بما تقذفه لهم الحياة من لقيماتٍ غير سائغة، وظلٍّ غير ظليل. أفئدة بعدما أوشكت على السقوط في التيه أدركت بابًا خفيًّا من الأمل قد حفظه الله لها!

لا زال السكونُ يغشاهم وقد علموا أنّ هناك ما يجمعهم غير ما فهِموا، غير الإفساد، غير الدونية، غير الإنكسار والذل، يجمعهم أمرٌ غير اليُتم!

أخيرًا وقف أحدُهم على شَقِّ الحديث.. تكلّم «عربي»:

– لازلنا لا ندري من أمرنا شيئًا.. لكن ما أدركُه تمامَ الإدراك أنني لستُ خائفًا ممّا سيأتي.. أيًّا كان.

لم يُبدِ أحدهم اعتراضًا، ولم يُمسك أحدهم زمام الكلام؛ فأكمل:

– ربّما نحن نُستغَل.. هذه الرحلة المجنونة كلّها كانت لهدف استغلالنا، لعلّها تلك هي الحقيقة المؤلمة، لكننا.. أو لأتحدّث عن نفسي حين أقول.. «لم

أُقابل أحدًا منذ دار الأيتام إلّا واستغلّني.. طفولتي، حبّي للحلوى، اشتياقي لأختي، حاجتي للمال... تاريخ عظيم من الاستغلال» لهذا لن أتفاجئ إن كانت هذه الرحلة أيضًا للاستغلال، ربّما سأحزن ولكنْ لن أندمَ عليها.

سكتَ قليلًا ينقّل عينه بين الجميع وكأنّه ينتظرُ منهم الحديث، أتمّ العشر ثوان ثمّ تبسّم قائلًا:

– لن أندم لأنني ولأول مرة أجدُ مَن احْترم رأيي، ونظر إلى ما خلف لقب اليتيم، لن أندم لأنّني قابلتُكم.. أشخاص لم أعلم عنهم غير أسماء بلادهم وألوان أعلامهم، لن أندم لأنّ الله جمعني بأختي بعد فراق سنين، لن أندم على أيّ شيء.

أحسبُ أن الينابيع الصافية التي لا أعرف عنها إلّا وصفها قد فُتِحت بصدرِ هذا الفتى؛ فصار الماءُ يتسرّب منها حروفًا، ثمّ يتشرّب إلى الأفئدة والقلوب من حولها فيملأها حنانًا وأمانًا، وأوقن كذلك أنّ الله لا يُجري مثل هذا الخير على اللسانِ ويتركه ظنًّا وحلمًا إلّا وقد قدّره فأحسنَ تقديرَه.

التفّ «القطري» بمجلسهِ الذي كان يبعد قليلًا عن مجلس «عربي»، وقال:

– أُشاركَكَ الأملَ في أن لا نُستغل هذه المرّة، يُطمئنُني قليلًا كلامُ «أبو ليلى» رحمه الله، فقد أدهشني حديثُه مع صاحبه، هذا الحوار الأخير لا يكون

من صحبة شرّ.. ليس بهذه الطريقة أبدًا، أحسبه أكبر من ذلك، وعهدهما!!..
وكأنها يتسابقان!!

كلّ واحدٍ منهما يتسابق في تنفيذِ عهدِ صاحبه..

وبمجلسه حرّك «المغربي» رأسه بقوة وتحركت شفتاه بتوتّرٍ، وكأنّما التردّد يزعزع ما بقي من ثقتهِ، همس في نفسه.. «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»؛ فانطفأت في نفسه حمّةُ القلق، وسرى اليقين على وجهه ماءً يتصبّب منه، وهو يقول بثباتٍ:

- إنْ وثقوا في اتفاقنا وإنسانيتنا بمجرّد إجابة في سؤال؛ فأنا أُحبّ أن أثبت لهم ولكم أنّ كلماتي أكبر من مجرّد أحرفٍ على ورق...

توقّف عن الكلام ووضع المُسدّس أمامه، ثمّ رفع يده عنه تمامًا، أخذ نفسًا قويًّا وأضاف:

- أَيًّا كان مَن سيحمله منكم.... أثِقُ بِه.

الآن.. أرى إنسانًا يطلب إنسانًا يعتمدُ عليه، وينشر يقينًا قد ركن إليه. أن تجد مكانك في العالم أمرٌ صعب، والأصعب منه أن تعلم مكانك من نفسك، وبهذا الوقت وفي هذه البقعة المضيئة من قلبي؛ وجد كلّ منهم مكانًا لروحه غير ما توهّم.

واحدٌ مِن مَن كان مُكلّفًا بالمراقبة قام يمشي بثقلٍ وقد أسقط عيونه أرضًا وهو يتقدّم تجاه المُسدّس ثمّ يُمسكه ويرفعه أمام وجهه؛ وتباعًا لوقفته رفع عينيْه عن الأرض، وكأني حينما أبصرتُهما قد نفذتُ إلى موضعِ الأسرار من قلبه.. وأحطتُ بما بين قمّة رأسِه وأخمص قدمه؛ فلم أجد غير سواد النفس والفؤاد!

عاد إلى حيثما كان مجلسه، وقبل أن يزيد أحدٌ كلمة.. ارتسمَت على وجهه فرحة الظفر وهو يقدّم المُسدّس إلى الضّخم قائلًا... «كما أمرتَ، ولا تنسَ وعدكَ لي»!

ثارت ثورة الغضب في نفوسِ الشباب وأزبدت أشداقهم، همّوا واقفين مُستأسدين، أمّا القاتل فقد انتصبَ بدوره واقفًا وقد بدت يدُه خالية من قيدها، كذلك صاحباه، قرّب المُسدّس من وجهه وقبّله قُبلة صديقٍ غائب، مسح عليه بحنانٍ جارف، ثمّ حرّكه بعيدًا عن شفتيهِ ووجّهَهُ تجاه الشاب الذي ساعده.....

وبكلّ ثباتٍ أطلقَ الرصاص!

هلكَت البسمةُ على وجه الفتى وانمحى أثرُها، والضخم يتحدّث بهدوءٍ راميًا كلماته إلى «عربي» ومشيرًا إلى المقتول:

– وقد تُخرِج النبتة الفاسدة ثمرةً فاسدة كذلك أيّها اليتيم.. وهذا هو الغالب.

***

الأرض، عام ٢٠١٧

استقرّت أقدام «لامبورجيني» خارج الدار لا تتحرّك لبعضِ الوقتِ حتى استأنست المرأةُ الهدوء وأيقنت رحيله؛ فخطتْ خطواتٍ واهناتٍ أكاد لا أدرك أثرَها فوقي، ظلّت تسير حتى وقفتْ أمام حائط، ثمّ ركنت إليه ساجدة تنتحب وتنادي..

«آهٍ يا «حسن».. أيها المظلوم، صاحب القلب الكتوم، آهٍ من فراقك، أخذوك غدرًا يا بني! سرقوك منّي ومن عروسك يا غالي! ذبحوا فرحتنا... آهٍ يا «حسن»، متى ستعود يا بني؟ متى سأحضنك يا بني؟ متى ستمسح على رأسي يا «حسن»، يا ربّ خذني واترك «حسن»، يا ربّ خذني واترك «حسن».....

ولا زالت تبكي ويفيض الدمعُ من عينيها قهرًا وحزنًا؛ والشاب يقف خارج الباب يبكي لبكائها وكلامها حتى تهدّج صوتُه وعلا نشيجه؛ فبرزَ من مخبئهِ ومشى إليها؛ فانتفضت لرؤيتهِ، ثمّ سكنت وهي تُكلّمه:

- هل جئتَ تسأل عن «حسن»؟

- لا يا أمّي، سمعتُ صوتك فجئتُ أسأل عليكِ.

- أنا بخيرٍ يا ولدي.. فقط أنتظرُ «حسن».

اقتربت أقدامُه منها حتى جاورتها، ثمّ قال:

– إذًا ننتظره معًا.

جلسا الاثنان ثالثُهما الصمتُ، ظلّا كذلك حتى حكَت العجوز دون سؤال:

– هو حفيدي الوحيد، لم يبقَ لي من الدنيا إلّا هو وقطعة الأرض هذه، أبوه كان يخدمني من قلبه، وأمّه كانت حبيبتي وابنتي التي لم أُنجبها، أصرّ «حسن» على السفرِ ليكمل تعليمه، يُحبّ الهندسة والرسم والبناء، غادرنا جميعًا دون وداع، تقلّبت أحوالنا من بعده، كأنه ذهب هو والخير سواء، عندها حضر الرجل صاحب العُكّاز، قال.. «نشتري منكم الأرض حتى تُسدّدوا ديونكم»، رفضنا كلّنا، ورفض الجيران، ذهب الرجل وعاد بعد مدّة، كان الحالُ ساء، فأعاد عرضه.. «نشتري منكم الأرض حتى تسدّدوا ديونكم»، رفضنا ثانية، تعِبَت زوجة ابني؛ فاحتجنا المال، علِمتُ أنّ ولدي لن يتنازل عن أرضهِ وعرضهِ لكنّي لم أستطع تركَ زوجته تموت؛ فذهبتُ وبعتُ الأرض وعدتُ بالمال، الأطباء بعدما أخذوا المال قالوا.. «فعلنا ما بيدنا والباقي بيدِ الله»، بعدها ماتت زوجة ابني، قدّر الله والحمد لله، أمّا ابني فقد وجد نفسَه بلا أرض.. وبلا زوجة.. وبلا ولد؛ فنام في المساء ودُفِنَ بالصّباح.

شهقَت بقوةٍ وألم... «يااارب»!

دقيقة حتى استأنفت:

– عاد «حسن» فوجدهم ماتوا، فصرخ بوسط الدار... «يا جدتي إنّ الله ظلمني!»، فقلتُ.. «كيف هذا يا ولدي؟»، فأجاب.. «أخذهم منّي وأنا أحتاجهم.. فلِمَ أخذهم؟»، فسألتُه.. «ما دُمتَ تحتاجهم؛ فلِمَ تركتَ يدهم يا بني؟!»، فبكى.. ثمّ جلس على قبورهم ثلاث ليال يصلّي ويدعو الله أن يغفر له، ولهم.

توقّفَتْ عن الكلام ومسحت عيونها بحجابها، جفّفت تلك السيول الجارية وقبَضت بضع أنفاسٍ تُلملم في أثرها الهدوء، ثمّ أكمَلت روايتها:

عاد الرجل صاحب العكّاز وطالبَ بالأرضِ، وقفَ له حفيدي، ووقف معه الجيران أصحابُ الأراضي الباقية؛ فرحل الرجل وعاد بحُمّال السلاح، طالب بالأراضي كلها، وأمرَ بطردنا جميعًا، أظلَمت السّماء من فوقنا واشتعلت الأرض من تحتنا، دخلوا على منازلنا.... حينها خرج «حسن»، أحضر بعض الشباب وجمع الأحجار...

أشرقَ صوتُها وهي تُكمل:

– حجارة صغيرة وكبيرة.. لم يعترض، فقط ظلّ يضرب بها صاحبَ العكّاز وأصحابه، هربوا وأذيالهم بين أسنانهم، وكلّ فترة يعودون بسلاحهم ونعود نحن بحجاراتنا؛ فلا نحن نتوقّف ولا هم يتعلّموا!

قدمها التي احتقنت من جلستها؛ قامتْ لتفردها وتحرّكها، صمتت قليلًا ثمّ عاودت الرواية:

– عاد في المساء، فاليوم عُرسُه؛ وضعتُ بيده الحنّاء، مسح بها على شعري، شيطان!

ضَحِكَت وهي تخفي شعرها المُحنّى، وكأنّها نسيت سببَ البكاء، أكملت:

– جريتُ وراءه وجرى هو كالطفلِ، يصرخ.. «لن تمسكيني أيتها العجوز»، أتعب قدمي وقلبي؛ فجلست لأرتاح، وعندما أتى يهزأ منّي.. أمسكته!

ضَحِكَت ثانية وهي تضع حجابَها على فمها خجلًا وتقول:

– خدعتُه.. حتى لا يقول لي يا «عجوز»، الآن عرِفَ مَن منّا «العجوز»، قصصتُ له شعره وكويتُ له ملابسه، عطّرته، ربطتُ له الحذاء.. كما كنتُ أفعل منذ زمن، نهاني عن ذلك لكنّي أصررتُ.. فهل كلّ يوم يتزوّج الأبناء؟!

قبّلني على رأسي..

ومدّت يدَها حيث كانت قُبْلته؛ فبكت عيناها، أكملت:

– قبّلني ببطن يدي كما كان يفعل صغيرًا..

ثُمّ رفعت يدَها حيث كانت قُبْلته، ضمّتها إلى صدرها وعاودت البكاء!

لازالت تحكي وهي تُرسل العبرات:

– حضر الجيران.. قليلٌ هُم، أحضروا العروس، كانت جميلةً تليقُ بولدي، عليها خمار أبيض مثل اللبن، فوقه تاجٌ أبيض مثل الثلج، أمّا وجهها فكان أبيضَ مثل الزهر، كانت الليلة بيضاء وفرحتنا بيضاء حتى أتوا...

توقّفت عن الحكي وانتفضَ جسدها فزعًا، تخلخلت أقدامها؛ كادت تسقط، تلقّفها «لامبورجيني» قبل أن تلمِس سطحي، وهتف بها:

– اهدئي يا أمّي، انتهى الأمر، لا تقلقي.

لكنّها اعتدلت، ابتعدتْ أقدامها عن موضع أقدامه، ثمّ سارت بخطواتٍ يتملّكها العرج وهي تلهَج:

– لم ينتهِ الأمرُ يا أستاذ.. لم ينتهِ أبدًا.

فخرج الشاب من عندها يجرّ أقدامه، وإني لأجدُ في وقعها كآبة وحزنًا، وأسمع صدى زفراتِه.. زفيرًا مُتداركًا كأنّما ينفث أفلاذَ كبده نفثًا، مرّ بهِ الوقت سيرًا حتى نزلَت به ضربةٌ من الخلفِ؛ فترنّح قليلًا ثمّ هوى دونَ حراكٍ بجانبِ جزعٍ في منتصفِ الطريق.

شفّ ثوبُ القهر عمّا تحته، وظهرت الحقيقة المُتجسّدة في أسلحته من بطشِ التابعين، وظلم الحاضرين! سقطَ الشاب فوقي؛ فارتجفت لسقطتهِ أضلعي، وإنّي لأعلم ضاربَه، وحاملَه، وظالمَه، وساجنَه، وما أملكُ له ولنصرتهِ شيئًا!

أمّا تلكَ البقعةِ منّي حيث جلس الشباب يصدح من حولهم صراخ الساعة الطائش، سقطتْ أقدامهم فوقي مِن أثر السيرِ، وتثاقلت كلماتهم من أثرِ الإرهاق! انتصفَ النّهار، ولم يعرفوا طريقَ العودة بعد، نامت «بورش» باستسلامٍ وهي تخفي ساعتها بطيّات ملابسها؛ فخفضَ القليل من الصوت، من بعيدٍ خطتْ أقدامٌ تسحب بعضها بعضًا، وتخرج أنفاسها همًّا، في إثرها يتبعها ذيلُ فستانها، ومِن خلفها سقط تاجُها الأبيض، اقتربت من موضعِ الشباب، سألتهم وصوتُها ينضح بالأمل:

- هل مرّ أمامكم ركبٌ به شابّ يرتدي ملابس عُرس؟!

هبّت الأقدام تقفُ أمامها، تتحرّك من حولها، أعادت المسكينة السؤال، لكن لا إجابة، وأنّى لهم الكلام! وقد حظر عليهم الحديث بالعربيةِ!

أعادت الفتاةُ سؤالها للمرة الثالثة وبصوت يمتلئ جنونًا، فهتف «فيراري»:

- « We have not seen anyonev.(نحن لم نرَ أحدًا) »

تلقّفتها «مرسيدس» بين ذراعيها وهي تهمس:

- «We are really sorry».(نحن آسفون حقًّا)

عادت الفتاة إلى الخلفِ بفزعٍ منهم، ربما لأنها لم تفهمهم، أسرع «كاديلاك» بالكتابة على الرمل مُستخدمًا ماصّة..

- نحن مِن القرية الحديثة.. فهل تستطيعي إرشادنا إلى طريقِ العودة.

شهقت الفتاةُ بضع شهقاتٍ وهي تلملم ذيل فستانها، تهاوت أقدامها من تحتها؛ فتكوّمت أرضًا تنتحب، سألها «كاديلاك»:

- «Can you help us?» (هل بإمكانكِ مساعدتنا؟)

ظلّت الفتاة على صمتها وأنينها حتى اقتربت منها «مرسيدس» وجلست جانبها، ثمّ خطّت فوقي كلمات:

- أتعرفين الطريق للقرية؟

خرج صوتها ضعيفًا:

- أجل أعرفه.

كتبت «مرسيدس» من جديد:

- هل بإمكانك إرشادنا إليه؟

- سأدلّكم، ولكن يجب أن تساعدوني أولًا.

سطرَ «فيراري» على الرملِ:

- بمجردِ أن نصل للقرية.. نساعدك.

هتفت الفتاةُ باعتراض:

– لا لن تفعلوا، أنا أعرف أمثالكم.

نقش «كاديلاك» أمامها على الرملِ:

– حسنًا، كيف نساعدكِ؟

خرج صوتُها مُستبشرًا وهي تُجيبه:

– ابحثوا معي عن زوجي «حسن».

كتبَ على الرّمل:

– وأين هو «حسن»؟

– كنّا بالعرسِ، حملونا معًا على الجمال، رقص الرجال في دوائر، ورقصت النساء بالدار، زغردت العمّة «أم حسن»، حينها أتوا وأخذوه...

سأل «چجوار» باهتمامٍ:

- «Who took him?» (مَن أخذه؟)

لم تفهمه الفتاة وهي تحرّك رأسها بجهلٍ، لكنها أجابت سؤاله وهي تسترسل بكلامها دونَ قصد:

– الرجلُ صاحب العكّاز.. أتى واصطحب معه الكثير من الرجال أصحاب السلاح، أمروه بالنزول عن الجمل، صرختُ فيهم ليرحلوا، تلاشى صوتي مع صوتِ أسلحتهم ونيرانهم وقد فتحوها على زينة العرسِ حتى حرقوها.

بصوتٍ يتقطّر غضبًا سألت «مرسيدس»:

- «Does the girl mean the village manager?»

(هل الفتاة تقصد مدير القرية؟)

سكتت الأصوات مِن حولها إلّا مِن نحيب الفتاة، كتب «فيراري» على الرمل:

– ماذا فعل «حسن» لهم؟

– ذنبه الوحيد هو أنّه أحبّني وأراد مفاجأتي، نحن نعيش بالجزء الغربي من القرية، قطعة صغيرة يتجمّع فيها كل الأهالي، بعضنا في خيامٍ والبعض الآخر يسكنون منازل من قشّ، الرجل صاحب العكّاز يحظر علينا الخروج لباقي أجزاء القرية.. فهو يمتلك كل شيء، مع أنّ أرضنا التي نعيش عليها ليست ملكه، لكنّه هو القانون هنا....

أعاد «كاديلاك» استفهامَه:

– وما دخل «حسن» بكلّ هذا؟

– جاء «حسن» مساء يوم الجمعة الماضي وقال لي إنّ هناك أمرًا ضروريًّا يحتاجني فيه، سِرتُ معه حتى وصلنا لمكانٍ يبعد كثيرًا عن أهلنا، لم يكن هناك إلا أنا وهو وثالثُنا القمر، سألته ماذا يريد؟، لكنّه تجاهلني وتحرّك تجاه كومةٍ على الأرضِ مُغطاة بورق الشجر؛ فنزع عنها الورق ثمّ أشعل بأطرافها شعلةَ

نار؛ فاندفعت الصواريخ إلى السماء؛ فأنارتها وكأن الشمس أدركت القمرَ في وقته وصرْنا نهارًا! وفي أثناء دهشتي تقدّم «حسن» وهتف بي.. «تتزوّجيني يا رُمَّانة»!

سكتت قليلًا تستجمع أنفاسَها وتهدئ قلبها، أكملت بعد دقيقة:

– وافقتُ فورًا.. فكيف أرفض رجلًا أنار ليَ السّماء!، في المساء وكلّ مساء يحضر الرجلُ صاحب العكّاز، يسألنا عن «حسن»، إلى أن أتى بالأمسِ القريبِ؛ فانقضّت عصابته عليهِ وذهبوا لسيّدهم يجرّوه إليه، ومن وقتها وأنا لا أدري أين أخذوا «حسن»!!

أتمّت حديثها وسكتت لا تحكي ولا تدري مِن أمرها شيئًا، جاورت قدمُ «مرسيدس» قدمَها، كتبت لها:

– تبكين؟

فنفت «رُمَّانة» بقوة:

– لا يا آنسة.

فكتبت «مرسيدس»:

– وماذا أرى بعينيكِ؟

همست «رُمَّانة» لها:

– شوقٌ مالِح.

قطع سكونَ الجميع صوتُ عجلات سيارة تمرّ بجانبهم، وقفوا تملؤهم اللهفة، علا الغبار المُحيطِ بها وهي تقتربُ من أماكنهم، أشار لها الشباب، ونادى الباقي:

- « «Hey، wait. (يا سيد.. انتظر) » -

لكنّ السيارة مرّت بجانبهم ثمّ عبرتْهم ولم تتوقف لصوتهم أو نداءاتهم، صدرت شهقة قوية من «بورش» التي كانت تقف على تلّة عالية قليلًا، صرخت وقد علا صوتها صوت ساعتها وهي تُشير إلى العربة وتهتف.. «أخي.. أخي معه»

تعجّبت الفتاة «رُمّانة»:

– لكننا لم نرَ أحدًا غير السائق.

ووسط نحيبها وشهيقها أوضحت «بورش»:

– صدقوني لقد رأيته من فوق التلّة.. أخي مُلقى بالسيارة، ورأسُه تسيلُ منها الدماء!

***

«أمّا قبلُ»

هاجتْ الأصواتُ بالسلامِ والكلامِ، كان الوقت بداية عام ألف وتسعمائة وتسعون؛ فتظنّ احتفالات العام الجديد قد طالت عقول وألسنة الحاضرين، لكنّ الحقيقة كانت في ذلك الجمع الغفير الذي وقف يتلقّف «إسماعيل» مُقبّلين ومُعانِقين، ذُهِل من حرارة سلامِهم ودفء كلماتِهم، لكِن كلّ هذا لم يمنَعْه من كَتمِ عبرات افتقاده لزوجتهِ وابنهِ داخِل صدرهِ مقيّدة، وهو يخشى أن يظنّ الحضور به ضُعفًا..

إنْ رأوا في عينيه ماءً، أو في صدره رجاءً، أو سمِعوا من بينِ شفتيه نِداءً؛ فالشوقُ دليل المستضعفين!

سارَ واثقَ الخُطى متذبذبَ الفؤاد حتى إذا ما وصلَ إلى مكتبهِ؛ دخلَهُ وأغلق عليهِ بابَه، ينظرُ حوله.. سبعة أشهر وكأنّهم الدهر كلّه، اختلف كلّ شيء بمكتبهِ، جلَسَ على كرسيهِ برفقٍ وكأنّه يسلّم علىِ عزيزٍ غائب، تكاد تشعر في لمستهِ ببعض الحنين لجلساتِ نابضاتٍ بالخيرِ حدثت في هذه البقعةِ الطيّبة من الماضي.

أخرجَهُ من ذكراه طرقًا قويًّا على البابِ ثمّ دخل منه صاحباه، تلاقَت الأيدي والأكتاف.. تحرّكت الشفاه بحمدِ الله والثناء عليه، تأمّل «صَلاح» جمعتَهُم ثمّ تبسّم ضاحِكًا وقائلًا:

– والله زَمان.

ظَهَرَ على وجهِ «إسماعيل» بعض الخجل، قال «خَليفَة»:

– أخيرًا عُدتَ يا رَجُل، استلِم عمَلَك فورًا لِتَرحَمني يا أخي.

ضَحِكَ «إسماعيل» و»صَلاح» على صاحبيهما وقد أيقنا منه هَرَبًا من مشقةِ «حلّ الأزمات»، قال الأول باهتمامٍ:

– لمْ أشكُرْكَ بما يكفي على قيامكَ بمَهامّي طوال سبعة أشهر يا «خَليفَة».

– هل بيننا مثل هذه الرّسميّات يا «إسماعيل»؟!

أحسّ بفضلِ صاحبِه في نفسِه؛ فكبُرَت مكانته، التفَتَ إلى الآخر قائلًا:

– وأنتَ يا «صَلاح» قد صبرتَ عليَّ صَبر المُخلِصين.. كيف لي أن أردّ جميلَك هَذا؟

– بأنْ تعدني أن لا تَغيبَ ثانية.

تبسّم من قولهِ، سكت.. وبعد قليلٍ قال:

– أعِدُك.. وهذا وَعد سأحافِظ عليهِ بإذنِ الله.

نظرَ «خَليفَة» إلى كليهما باستِفهام، تحدَّث «إسماعيل» مُحاولًا تغيير الحديث:

– أحببتُ أن أحدِثكم بأمرٍ ما.

رحّب الصاحبان بما سيقول؛ فأكمل وفراشته الصغير مُستقرّة بين راحتيه وكأنها تسكنُ إليه:

– لقد قررتُ أن أُغيِّر وصيّتي وأجعل نصيبي بالشركةِ وقِسمَ «حلّ الأزمات» لأحدِ الدور الخيرية بعدَ موتِي.

***

الطـائـرة، عام ١٩٩٥

أجدُ بين طيّات هذه العقول وقائعَ لا يُسرّ منظرها، ولا يروق مخبرها، وإنّ نفسًا واحدة تصدُق حديثها لهي خير من ألفِ نفسٍ تعد ولا تحقق وعدها وتُقسم وهي لا تملك يمينها، كذا هي أحوال الأرواح الصدئة والقلوب المُهترئة.. فلا تحفظ العهود ولا تهتمّ بما للكلمات من قيود، وحالها كحالِ الشاب حين أمِن للقاتل! وهو ما لم يُدرِك من أفعاله غير الضير، ونزلَ عليهِ منهُ الكثير من الضيم! وبالرغمِ من كلّ هذا.. وقع فريسة حلو كلامِه وزينة مكافآته حتى نال الأخير أعزّ ما يملك الأول.. «الثّقة»!

والثّقة بعضٌ من إيمان! وهذا ما بلغني من صاحب الكلام، وما علمتُ يومًا عن الإيمان إلّا أنّه طريق إلى الجنّة، وكذا سمعتُ عن الجنة والسبيل إليها والحرص عليها، ثمّ إني أجد الآن أرواحًا مسفوحة وثقة مبذولة لا تهدي إلى

إيمان! وإيمانًا لا يهدي إلى جنّة! وجنّة هي ملك لله! والله لا يصلح أبدًا عمل المفسدين!

اصفرّت الوجوه وتحجّرت العيون، فالخيانة خنجر ملوّث يصيب النفوسَ المحيطة بالقهر ويقصم لهم الظهر. تمّ الأمر بسرعة! وجّه القاتل سلاحَه إلى الشباب جميعهم وبدأ بالتحرّك والتحدّث في نفسِ الوقت، وصوتُه يتقطّر سخطًا:

- الخطّة كانت بسيطة جدًّا.. أنا وصاحباي نرتدي أقنعة الأكسجين، أُطلق على النافذة رصاصتين؛ فتنكسر، يتسرّب الضغط.. ودون أقنعة أكسجين؛ تفقدوا الوعي، ثمّ نفتح ثلاثتنا معًا باب الطائرة ونقفز بالمظلات وأنتم تكملوا رحلتكم إلى الأرض لكنْ بطائرة لا تحوي غير الأموات.... فقط.

التفتَ إليهم، يستنكر بنظراته تدخلَهم الفجّ على خطته، لا زال يسيح ذهابًا وإيابًا، يحرّك يده بعصبيةٍ وكأنّه يُحدّث شخصًا ما، وقف صاحباه يدفعان بالشباب يُمنة ويسرة، ونبرةُ تهديد تُسيطر على ألسنتهم، أرقل الضّخم إلى الطيّارِ الذي لم يكد يهنأ ببعض حرية حتى وجد المسدّس مصوّبًا إلى رأسهِ، والقاتلُ يأمره:

- أصلح جهازَ الاتصال.

ابيضّ وجهُ الرجل وأربدت شفتاه، أعاد الضّخم هتافَه لكنّ الرجل لم تخرج منه كلمة واحدة مفهومة، وقد بدا أنّ التلعثم هو وسيلته الوحيدة في التعبير عن فزعه ورعبه، ولمّا لم يستطعْ أن يحلّ عقدة لسانه؛ خرج أصفر اليدين، يتحرّك بداخل قلبي إرقالًا وإدبارًا، سيطرت على أطرافهِ الأفكار؛ فصدرت من بينِ شفتيهِ الهمهماتُ الحائرة إلى أنْ وقف أمام «سميّة» وأطلق فيها النظر.. إطلاقًا لا رحمة فيه! ثمّ مدّ يدَه إلى رأسها وجذبها من حجابها يجرّها حيث قبع الطيّار واجمًا خائفًا؛ فهدّده بقتلها إنْ لم يصلح جهاز الاتصال! لكنّ «عربي» لم يمهله الفرصة حتى ينفّذ تهديده؛ فقد تعلّق بيديه محاولًا نزع أصابعه عن رأس أخته!

كذا وقف خمسةٌ من الشباب صارخين مُستنكرين ما يرونه أمامهم، أمّا صاحبا القاتل فقد تكالبا عليهم يدفعانهم بالأيدي والأرجل حتى لا يتحرّكوا من أماكنهم.

لازالت يدُ «عربي» تقبضُ على ذراع الضّخم حتى تكاد تخترق أظافره لحمَ يديه! صرخ الأخير بألمٍ وهو يقذف «سميّة» إلى ركنٍ من الأركانِ بعدما انسلّ حجابها عنْ رأسِها واختلّت قدمها؛ فتكوّمت أرضًا! رأى الأخُ أختَه هامدة لا تتحرّك؛ فانقضّ على الضّخم غير عابئٍ لسلاحه ولا إلى وعيده وتهديده، كذلك اعتدلت كفّة القوة عند باقي الشباب فهزمَ كثيرُهم قليلَهم، وغلب

صالحُهم ظالمَهم، ولا زالت المعركةُ تدور بين القاتل والعربي، انضمّ آخرون للقتال، لم يعدْ هناك تكافؤ بين الصفوف! الضّخم وحده وضاربوه كثيرون!

كذا كان الحقّ بين ظهرانيهم سابقًا! الآن يبدو الحقّ يتلألأ في وجوههم، وعلى أكفّهم، وفي حنايا أرواحهم، المُسدّس لا زالَ بين يديه، لكنّ جسدًا واحدًا لم يُغير مكانه أو يتزعْزع، يُقاتلونه ليقتلهم.. ولا فِكاك!

صرخ الضّخم بأعلى قوّته....

- حسنًا.. حسنًا.. توقّفوا.

ذُهِلَت أنفاسهم وتخبّطت أعينهم في حيرةٍ واضحة. لا أثقُ باستسلامه لكنّه لم يكدْ ينهي كلمته حتى رفع يديه فوقَ رأسه وعاد بظهرِه إلى حائطي بخطوات مُتخلخلات؛ فركن إليه ركونًا مُنكسرًا ضعيفًا وهو لا يستطيع إلى القوة سبيلًا!

لا زال المُسدّس بين يديه! اقترب منه شاب ثمّ مدّ يدَه ليأخذه؛ فهتف به الضّخم مُستجديًا..

- لا.. انتظر.. فقط انتظر.

ووسط انْدهاش الجميع أخرجَ الضّخم «مشط» الرصاصات وأفرغه أرضًا أمام الأعين كلّها لاهثًا برجاء:

– لا أستطيع إعطاءك المسدّس.. فهو لوالدي، الهديةُ الوحيدة منه.

أعاد الشاب يدَه إلى جانبِه، وانحنى يجمعُ الرصاصات عن الأرض ويضعها بجيبهِ، هُنالك تهافت «عربي» على أختهِ يُناديها ويتحسّس وجهها الباكي، قرّب يده من فمها؛ فأدرك منها أنفاسًا؛ حمِدَ الله حمْد الشاكرين وهو يضمّها إليه، وعينُه تبحث عن حجابِها الذي هوى من قبل أرضًا.

نادى «الطيّار» بصوتٍ يلتهب سعادة:

– دقائق ونحطّ بالطائرة.

انتهتْ رحلة العذاب أخيرًا، ثلاث ساعات مضت وكأنّها الدهر!

الكّل جالسٌ يلملم الأنفاس بقوة ويُخرجها بقوة، وكأن أنفاسًا حرّة من القاتل هي أكثر فائدة وأعظم أجرًا، غلَبت بعض المآقي الأحزان؛ فأرسلت الماء هتونًا صامتًا ساخنًا!

لم يكتوِ قلبي من قبل أبدًا بمثل ما اكتوى في هذه الساعات من الآلام والهموم، ولم أرَ العيون تنتحب من قبل أبدًا كما انتحبت الأفئدة داخلي، وإنّي سمعتُ يومًا أنّ الدموع هي رسولُ الرّحمة داخل النفس، وعلامة الروح داخل الروح، ودليلٌ أن القلوب تحمل جروحًا، فاللّهم لطفًا بتلكَ النفوس والأرواح والقلوب!

يمسح «عربي» بعضَ الماء على وجه أخته علّها تفيق، بعض الشباب يعدّل من وضعيّة الأجساد التي فارقتها الروح ثمّ يغطيها إكرامًا لحُرمتها، «سميّة» تهمس بكلماتٍ غير مُنتظمة.. لم تفقْ بعد، لكن كلمةً واحدة خرجت من بينِ شفتيها مُنتظمة الأحرف والمعنى.. «عربي»!

هكذا هَمَست باسْمه بين غفوتِها وصحوتها؛ فتأرْجَحت رأس «عربي» وكأنّما دارت به الدنيا، لمس قلبَه بيمينه، لعلّه يتبيّن أطارَ أمْ لايزال حبيسَ صدره، مسح عبراتٍ تدافعت لتهتك سترَ فرحتِه. لازلتُ لا أعرف عنِ الحبّ إلا حبّ صاحبيّ، وإنّ حبّهما في أضلعي قد نُقِش بماءٍ من حنين لا ينتهي أبدًا، ثمّ إني رأيتُ ذلك الحب الغريب، وكأنه حبّ الغريق لطوق نجاته حال زلّاته وعثراته؛ فيثق أنّ هناك يدًا ستمتدّ له، تعاونه وتنهض به؛ فيكون هو الطوقَ الأخير.. الذي يُحيي النفس ويبثّ فيها الأمل والعزيمة، وهو ما لم أجده من حال المُحبّين، بل أُبصره نبضًا أكثر إجلالًا.. فكأنني بالروح وقد تقسّمت وتناثرت بالكون، ثمّ قدّر الله لها الاجتماع؛ فتفجرت باجتماعهم تلك المعاني التي لا تنتجُ إلّا مِن صدوع الأفئدة الكليمة فتجري مع العيون شهقات وزفرات.

أيّها الحبّ الذي لا أفقَهه... حبّ الأخ لأخته، حبّ الأخ لأخيه، حبّ الأخ لصديقه، حبّ الأخ لبيته، حبّ الأخ لشارعه.. لمدينَتِه.. لوطنه، حبّ «عربي» لـ «عربي».. لا زلتُ أتبيّن حقيقة حبّك، لكنني أراه يخرج منك حركة

طبيعية من حركات نفسك تصدر بلا تكلّف، كصدور النّور عن الشمس، والصّدى عن الصوت، والعطر عن الزهر، هكذا سأفْهَم حبّك أيّها الأخ.. هكذا سأفهمك أيها الـ «عربي»!

- ستصحو قريبًا.

خرجت الجملةُ من بين شفتي الضّخم بتلقائيةٍ وكأنّه يُحدّث صديقًا حميمًا؛ اندهشت الأعين وهي تقفزُ إليه استنكارًا، نقل بصره بين الجميع وسكت، مرّت دقيقة حتى قال بنبرةٍ تلتهب تبريرًا:

- كنتُ صغيرًا جدًّا عند أول قتلٍ لي...

لا أدري كيف ظنّ أن جُملته هذه تصلح لبدء حوار!! لكنّه مع ذلك أكملَ والعيونُ تنظر له بدهشة:

- بالسابعة تقريبًا، كنتُ أقتل كلّ يومٍ قطة، ثمّ أشويها على العشاء، وأعود بها إلى أُمّي بالبيتِ، كانت كفيفة فلا تكتشف أنّي أحضرت لها قطة بديل الدجاج، ثمّ أُطعمها بيدي؛ فتدعو لي دائمًا.. «الله يطعمك بالحلال يا بني».. وكنتُ مُتأكدًا أننا بالفعلِ نأكل بالحلال، فلا بدّ أن الله أرسل القطط لتكون طعام أهل الطرقات، فالله لا ينسى أحدًا.. أليس كذلك؟!!

لم يُجبْ أحدٌ، أكمل دونَ اكتراث:

- في يوم أخبرني صديقي عن ذلك الرجل الغني وعن كنوزه التي ينوء عن حملها الرجال، وحكى لي عن خزانته التي لا تحمل قفلًا، فقط تفتح بابَها

تجدُ المال! لم أُصدّقه لكنّ حرارة الشمس مع كساد سوق بيع علب المناديل جعلاني أصدّق كذباتِ صديقي، ذهبتُ معه إلى بيت الرجل الغني ووقفتُ أمام الخزانة وفتحتُ بابها وأخذتُ المال، كلّ ما قاله صديقي كان حقيقة!

اقتسمنا المال، وعدتُ بسرعة إلى أمي واشتريت لها دجاجة مشوية، فلم تأكلها، لم تعجبْها الرائحة ولم تتحمّل الطعم، وسألتني بحزنٍ.. «لِمَ غيرتَ مطعمَ كلّ يوم يا بني؟!»

اعتذرتُ لها ووعدتُها أنّي سأشتري لها غدًا الدجاج الذي اعتادته، مرّت الأيام وانتهت الأموال، اشتقتُ للخزانة وما حوته، ملمسَها بين يديّ، رائحتَها، خرجتُ أبحثُ عن صاحبي فلم أجده؛ فقرّرتُ أن أذهب للسرقةِ وحدي، حلّ الليل فتسلقتُ الأسوار والأبواب والمكتب.. وصلتُ للخزانة، فتحت الباب لكنّه لم يُفتَح، فقد أُضيف إليه قُفلٌ، ثمّ فُتحت الأنوار! نظرتُ خلفي فإذا بصديقي يقف مع الرجل الغني مُبتسماً وقائلًا.. «ألم أخبرك.. ها هو قد عاد»

لم أفهمْ أي شيء، لكنّ الرجل الغني أعطاني كلّ شيء، ومرّت الأيام، وكلّما احتجتُ مالًا ذهبتُ إليه، فيطلب مني أنْ أذهب بنفسي إلى خزانتهِ وأفتحها وآخذُ منها ما أشاء! ليتَه كان أبي ذلك الرجل الكريم، انتهت تجارة المناديل، ونسيت مذاقَ القطط، وأجبرتُ أمي على أكلِ لحم البقر، حتى أتى يومٌ ووجدتُ الرجل الغني يمدّ لي يدَه بورقة قد كتب فيها عددَ كلّ جنيه

قدّمه إليّ، وبجانب الورقةِ وضعَ صورًا لي تُبيّن مقدارَ المال الذي كنتُ آخذه من الخزانة، ثمّ هدّد بالذهاب للشرطة واتّهامي بسرقة ماله!

توقّف قليلًا ليجمع أنفاسه، والكلّ تملّك منهم الإنصات؛ فأكملَ بعد دقيقة:

– خفتُ وغضبتُ، بدأ يطلب منّي ترويج تجارته والتي كانت في المخدرات، ساعدته كثيرًا فكافأني أكثر، حتى نسيتُ الغضب ولم أعدْ أتذكّر غير الخوف!

أفاقتْ «سميّة» وهُرِعت إلى حجابها تضبطُه على رأسها وتُمكّنه مِن سَتْرِها، أجلسها «عربي» بجانب النافذة حتى تصحو تمامًا، لا زال الضّخم يُتابع حكايته:

– صرتُ ذراعَه الأيمن، كنتُ يتيمًا عُمري كلّه ولم أعرفْ أبي؛ فكان هو أبي، بيومٍ حدثت عداوةٌ بيني وبين أحدِ الرفاق؛ فذهب إلى أمي وقصّ عليها حقيقتي كلّها، فلمّا عدتُ عاتَبَتني وصرختْ فيّ، ثمّ لطمتني على وجهي لطمةً ألبستني معنى الانتصار؛ فلم أفقْ لنفسي إلّا وقد منعتُ عنها أنفاسَها حتى انتهت تمامًا!

نادى «الطيار» قاطعًا سيلَ حديثه:

– الْبسوا أحزمةَ الأمان استعدادًا للهبوط.

قال أحدُ الشباب:

- يكفي يا رجل.. لا نريدُ معرفة شيء عن ماضيك الأسود.

سمع الضّخم الكلام وكأنّه الرّيح؛ فأكمل غير عابئ:

- ساعدني الرجل الغني على التخفّي والهرب، بل وسمّاني في بطاقتي الجديدة على اسمه.. «خليفة عمران»، لكنّ لم أعد آبه لشيء.

«خليفة» سمعتُ يومًا اسمًا كهذا يدور بالأرجاء! ما أسوأه من خليفة! أفسد في الأرضِ وسفك فيها الدماء!

لازال الضّخم يبذل الكلمات:

- كرهتُ وجهي الذي كنتُ أراه بالمرآة لأني كنتُ أشبهها وجهًا، كرهتُ صوتي.. حياتي.. أنفاسي، كرهتُ يُتمي الذي فرضَ عليّ هذا المستقبل، كرهتُ أنّي حي! لكنّي أدركتُ الحقيقة، حقيقة واحدة فقط.. أنّ مثلي لا يستطيع غير هذا، أنني ضحيّة.. أجل، لكنّي كذلك الجاني!

أنهى جُملتَه، ورفعَ سلاحَه عاليًا، وهو يوجّهه تجاه النافذة صارخًا:

- لهذا لا أستطيع السّماح لكم بالعيش.. فكلّنا نتشابه بالنهاية!

قالها وأطلق الرصاصةَ الساكنة في مجرى المسدس!!

***

الأرض، عام ٢٠١٧

انقشع الغبار تمامًا بعدما اختفى أثر السيّارة، لازالت السّاعة تصرخ، والفتاة تنتفض رعبًا على أخيها، أرقلوا بعض الطريق، وأبطأوا بعض الطريق، واستسلموا من طول الطريق، قال «فيراري» بعدما استقرّت أقدامُهم فوقي:

– «Maghreb's prayer!» (صلاة المغرب!)

سألت «بورش»:

– هل تظنّ أن الساعة مُبرمجة على تجاوز الصلاة والقرآن.

- «I do not know.» (لا أعرف)

تدخلت «رُمّانة» وأجابت السؤال:

– لا.. الساعة تصرخ عند سماع أي كلمة عربية حتى ولو كانت «الله أكبر».

كتبَ «كاديلاك» لها على الرملِ:

– وكيف عرفتِ هذا؟

– رأيتُ أحدهم يومًا يكبّر للصلاة؛ فصرخت ساعتُه!

سألت «مرسيدس»:

- «So what can we do?» (إذًا.. ماذا سنفعل؟)

أجابت «بورش» بصوتٍ آسف:

– أظننا ولأول مرة نكون معًا ومع ذلك سنصلّي سرًّا.

سكتَ الجميع؛ فأضافت وصوتُها يتقطّر ندمًا:

– ليتنا ما ارْتدينا هذه الساعات.

تحرّكت أقدامهم، ووقف كلّ منهم بموضعٍ، ثمّ صلوا صلاةً لا صوت لها!

لم أرَ حركاتهم ولا ركعاتهم ولا سجودهم، لم أسمع نبضاتهم وهي تشاركهم الصلاة!

لم أُدركْ أنوارهم، ولم أُبصِر خطواتهم!

وكأنّ صلاتهم ماتت فيهم وقبل أن تُرفع لله!!

وعلى قطعةٍ أُخرى مني، وفي بطنِ بناءٍ ما؛ نبت رجاءٌ صارخ حيث الحنين يتدفّق مع الكلماتِ، نادى مُنادٍ:

– أعيدوني إليها.. ثمّ خذوني غدًا.

لم يردّ عليه أحد؛ فصرخ بصوتٍ أعلى ممّا سبق:

- أعيدوني إليها.. ثمّ جُرّوني غدًا..

أو لا تفعلوا.. سآتي وحدي..

والله لآت.. والله لأفعل..

أعيدوني إليها، ولن أخلف معكم الوعد.

لم يُجبه أحد؛ فهتف بصوتٍ أعلى، وأعلى ممّا سبق:

- أعيدوني؛ فأُطمئنها أني بخير..

دوى صوتُه عاليًا قويًّا، ولم يُجبه إلّا الصمت؛ سقط مُرهقًا، وصوتُه ينبح:

- أخبروها أنتم إذًا أنّي بخير.

صدرت همهمةٌ من أحدِ الأركانِ، فتخلخت أقدامه فزعًا، صارت الهمهمة قولًا:

- أين أنا؟

فأجاب الصّارخ:

- بالسّجنِ.. مَن أنتَ؟

اعتدل الأخير وهو يشهقُ شهقات مُتألّمًا:

- مَن أتى بي إلى هنا؟

بقى سؤالاهما دونَما إجابة.. معلّقان بيني وبين السّماء، هل يسعُ تلك البعيدة أن تحتمل كلّ معلّقة وُلِدت من ألمٍ أو خذلان؟ رُبما لهذا لم يجعل الله لي قلبًا حتى لا أتصدّع من كثرة الأحزان، رُبما أنا أقوى دون قلبٍ! دون عاطفة! لعلّ الله إن قدّر لمثلي فؤادًا ثمّ رأيتُ ما يفعله الظالمون وما يدمّره المُفسدون؛ لأطبقتُ عليهم الجبال ولأسقطتُ مِن فوقهم الصخور؛ فالحمد لله على الهيئة التي كتبها لي، والعاطفة التي منعها عني.

بالسّجنِ شابان! أمّا أحدهما فقد سيق من عُرسهِ إلى عرسٍ مُختلفٍ لم يتوقعه، وأمّا الآخر فتنزل الدّماء من رأسه، قال أحدهما:

- مَن أنتَ؟ وأين أنا؟

- أنا «حسن» وهذا سجن.

- متى أحضروني هنا؟

- منذ ساعة تقريبًا.

قام من مكانه يتحرّك يمينًا وشمالًا يبحث عن مخرجٍ بالجدران؛ هتف «حسن»:

- توقّف يا رجل، هذا سجن.. سجن.. ألم تفهم؟

- فهمتُ لكنْ ما الذي أفعله هنا؟

- أولًا أخبرني مَن أنتَ؟ ثمّ بعدها نبحث في سبب دخولكَ السجن.

سكتَ الثاني قليلًا، وبعد مرور الدقيقةِ أجاب:

- مجرّد عابر سبيل.

- عابر سبيل! حسنًا كما تشاء.

- وأنتَ ما سببُ دخولِك السجن؟

- الحبّ يا «عابرَ السبيل».

- الحبّ!

قالها بتعجّبٍ واستهزاء؛ فأكمل «حسن»:

- سأعذركَ.. فلا بد أنّكَ لم تعرفه قبل اليوم.

- لا لمْ أفعل، ولا أزعم أني أتلهّف لتلكَ المعرفة.

سكتا معًا، مرّ الوقت؛ فقام «حسن» إلى الباب، وأعادَ الصّراخ:

- أعيدوني إليها.. أو أخبروها أنّي بخير، أجيبوني!

- على مَن تنادي؟

- على أيّ إنسان.. مع أنّي أشكّ أنّ هذه الحفرة مِن جهنّم قد بقى بها إنسان يعرف للإنسانية معنى!

- حفرة مِن جهنم!! أين نحن؟

- نحن في ما تعرفه أنتَ باسم «القرية الحديثة».

- وهل لها اسمٌ آخر!؟

- نعم.. الاسم الذي نشأت عليهِ تلكَ الأرض أول ما نشأت وسُميت به سنوات كثيرة.

- وما هو؟

- ومن أنتَ لأُخبركَ سرّ الأرض.. ما أنتَ إلّا «عابر سبيل» ضلّ به الطريق، وبعد قليلٍ ستخرج وتسير بطريقكَ الخاص، وتنسى تلكَ الأرض التي سُميت بغير اسمها، وذلكَ السجين الذي سُجن بغير جناية.

- هل تُهاجم أي غريبٍ بتلكَ الطريقة؟!

- ومَن قال إنّكَ غريب!؟ أنا لا أعتبركَ غريبًا، ألستَ بشرًا مثلي؟ ألستَ عربيًّا مثلي؟ ألستَ مسجونًا مثلي؟ ألستَ مظلومًا مثلي؟

لم يُجب الآخرُ، فأكمل «حسن»:

- إذًا فقد تآخينا في الحياة يا «عابر السبيل».

- طريقة كلامكَ تُشبه المجانين!

- رُبّما لأني أُفكّر.. فالتفكير علامةٌ من علامات الجنون!

سكت الآخر، وقدمُه تدبّ دبّات خفيفات من فوقي، أمّا «حسن» فقد قام مرة أخرى، ونادى:

– ألن تفتحوا الباب؟ وعدتكم أنّي سأعود!

– تقصد زوجتك؟ أمْ جدّتك؟

– أتعرف جدّتي؟

– قابلتُها أول اليوم.

– كيف هي؟

– تبكي عليكَ.

– هل متُّ لتبكي عليّ؟!

– إذًا تبكي لأجلكَ.

– وهل آذوني لتبكي لأجلي؟!

– ألم يأخذوكَ مِن عُرسك؟ ألا تعتبر هذه أذية؟!

– تكون أذية إنْ لم أسعَ لها.

– وهل سعيتَ لها يا «حسن»؟

– أجل.

– وهل تريد منّي التصديقَ أنّكَ سعيتَ كي يُلقى عليكَ القبض يوم عُرسِك؟!

– ليسَ بالضبط.. تمنّيتُ لو قبضوا عليَّ بالصباحِ.

ضحكَ الثاني وهو يهتفُ هازئًا:

– لم أرَ أعجبَ منْك!

– وأنا لم أرَ أعمى أكثر منكَ!

هبّ الثاني واقفًا غاضبًا؛ فبادرَه «حسن»:

– أعتذر منكَ.. صدّقني لم أقصد.

سكتَ الثاني مُكرهًا وقدمُه تدبّ بقوةٍ فوقي!

أمّا عند باقي الشباب حيث تصرخ السّاعة ويتملّكهم الإعياء، تثاقلت أقدامُهم، وقد اقتربوا من أنوارِ القرية، وصوت غنائها، هتف «كاديلاك»:

- « we have arrived.» (لقد وصلنا)

نفت «مرسيدس» بسخطٍ:

- « No، not yet.» (لا، ليس بعد)

همست «بورش» باضطراب:

– وقت صلاة العشاء دخل منذ ساعة!

سكتَ الجميع.. رُبما كان الخجل ما يطبع على وجوههم الآن، لستُ أدري! كلّ ما أعرفه أنّ الوضوء لم يعد يضيء وجوهَهم بعد الآن! وقفوا جميعًا دون اتفاق، سألت «رُمّانة»:

- لِمَ توقفنا؟ يجب علينا الإسراع.

أجابتها «بورش»:

- نصلّي أولًا..

هتفت «رُمّانة» بإلحاح:

- نصلّي بالقريةِ.. على الأقلِ ننتظرُ حتى لنصل؛ فيُطفئوا صوت صافرة ساعتك.

اعترضت «بورش» عليها:

- صوت الغناء بالقرية عالٍ؛ يجبُ الصلاة الآن.

وبمجردِ أن انتهت كلمتها... توجّه كلّ منهم إلى بقعة منّي ووقف مصلّيًا دونما صوتٍ أو حس! كما تمّ بصلاة المغرب مِن قبل!

أمّا صاحبا السجن فقد مرّت دقيقة، ثمّ سأل أحدهما:

- هل حقًّا سعيتَ ليُقبض عليكَ يا «حسن»؟

ضحكَ الثاني، واهتزّت قدمه من أثرِ سعادته وهو يُجيب:

- أنا لم أسعَ للسجن، لكنّي سعيتُ للصراخ.. حرصتُ أن يسمع ويرى كل هؤلاء المنافقين بالأعلى أنّي هنا.

- مَن تقصد بالمنافقين؟

– هؤلاءِ الزوار الذين أتوا من كلّ البلاد ليزوروا تلكَ الأعجوبة السياحية.

– تقصد هذه القرية!

– وهل يوجد غيرها؟!

– ولماذا تقول عنهم منافقون؟

– عربٌ وعلى أرضٍ عربية، وخجلوا من هويتهم ولغتهم!

سأل الثاني باستفهامٍ:

– تقصد شرط اللغة الإنجليزية؟

– وأي لغة.. فرنسية، أسبانية.... كلّهم مذلّة لأي عربي داخل وطنه.

– الأمر ليس إجبارًا يا «حسن».

– وهل تجمّل لي الأمر وتجعله أعجوبة العجائب وتحيطه بزينة الحياة الدنيا ثمّ تخبرني أنّه ليس إجبارًا!

– لا.. الأمر أن ضعيف الهوى مَن سيقع في مثل هذا الأمر.

فاستدركه «حسن»:

– ومَن منّا ليس ضعيفَ الهوى؟!

– لم أعد أفهمكَ يا «حسن»!

– وكيف تفهمني يا «عابر السبيل»؟ وأنت مجرد عابرٍ للسبيل! إن أردت فهمي؛ فانظرْ حولكَ..

تحرّكت أقدامُ الثاني داخل الحجرة المغلقة، ثمّ توقّف وسأل:

– نظرتُ حولي؛ فلم أجد شيئًا!

– لأنكَ نظرتَ من داخل السجن، نظرتَ وأنتَ تعلم أنكَ سجين؛ فلم ترَ إلّا ما سمحوا لكَ برؤيتهِ فقط.

– إذًا أيها الـــــ «غير سجين» انظر حولكَ، وأخبرني ماذا ترى؟

تحرّكت أقدامُ «حسن» لأكثر بقعةٍ مظلمةٍ بالحجرة وجلس بها، أخذ نفسًا قويًّا ثمّ تحدّث:

– آآآهٍ يا «عابر السبيل».. ليتكَ ترى ما أرى، هناكَ في أقصى اليمين أرى أمّي وهي تجرّ بقرتنا البنية من آخر أرضنا إلى أولها، وها هو أبي يجري عليها يُخبرها.. «لا تُتعبي قدمكِ يا أمّ حسن.. أعطني هذه البقرة وأنا أسير بها»، فتضحكَ أمّي ضحكة تجعل الزّهر يغار من خجلها؛ فيزفر أبي وهو يُمسك صدره.. «قلبي يا أمّ حسن»!

ثُمّ هناكَ بذلك الركن البعيد حيث أرض عمّي «عمران» تجلس ابنته «رُمّانة» تأكل عودَ القصب وتغيظني به؛ فأجري عليها وأجذبها من ضفيرتها

وأنا أغيظها.. «رُمّانة! ما أقبحه من اسم!! ليتهم سموكِ لمونة.. على الأقل كنّا سنضيف لكِ بعض السكّر ونشربكِ»، ثمّ أجري وأجري وهي خلفي تبكي؛ فلمّا تتعب وتقع أرضًا؛ أُسرعُ إليها وقلبي يهتف بها قبل لساني.. «سلامتك يا رُمّانة»؟ فلا تُجيب!

فتأتي جدتي من خلفي وتهمس.. «حسن لـــ رُمّانة.. ورُمّانة لـــ حسن».. فتخجل آكلةُ القصب، وأخجل أنا لخجلها!

أمّا بذلك الركن القريب أشمّ رائحة الخبز؛ فأجري خلفها حتى أصل لمصدرها، أجدُ النساء يحرسن النار وما عليها؛ فأتصنع البكاء... «جائع جدًّا يا خالة.. أعطِني رغيفًا»، ولا أزال ألحّ.. وألحّ.. وألح حتى تُعطيني رغيفين وتهتف.. «واحدٌ لكَ وواحدٌ لـــــ رُمّانة يا حسن».....

توقّف «حسن» عن الكلام، أمّا عينه فقد حكَت حديثًا آخر، بكى واشتد نحيبه، اقترب الثاني من موضعِه، همس له:

- هوّن عليكَ يا «حسن».

- لا أستطيع.. الكلّ هانت عليه ولم يبقَ غيري.

- أتبكي على «رُمّانة»؟ أم جدتكَ؟ أم والدتكَ؟ أم والدكَ؟ حدّد يا حسن!

- أبكي عليهم جميعًا يا «عابر السبيل».. أبكي على التراب الذي دُفنوا فيه، والتراب الذي تعبوا فيه، والتراب الذي فرطنا نحن فيه.

سكنت أصواتهما، لا يستطع أي منهما أن يخترق لحنَ القهر داخل الغرفة، طال الصمت حتى قطعه الثاني:

– «حسن».. لماذا سعيتَ ليُقبض عليكَ؟

زفر «حسن» بقوةٍ، وأجاب:

– أردتهم أن يعلموا أنّي لن أستسلم أبدًا لهم.. وتلكَ الأرض التي خدعوا أبي فيها؛ لن تُصبح يومًا حقّهم، وسأبقى دائمًا ما حييتُ تلكَ الشوكة التي تُنغص أسعدَ أحلامهم.

– لكنّهم بكلّ بساطة أخذوكَ ووضعوكَ بالسجن!

– لن يطولَ الأمر.. فهُم يخشون الفضيحة أمام الجميع، وكلّ مُستبد وراءه فضيحة.. تيقّن من ذلك.

– وبعدما تخرج؟

– سأعود وسيعودون إلى أن يأذن الله بخروجهم.

– أتؤمن بهذا يا «حسن»؟!

– أؤمن أنّه لا يضيع حقّ وراءه طالبٌ!

***

«أمّا قبلُ»

قرأ «إسماعيل» للمرة العاشِرة ذلك التقرير الذي وصلَهُ منذ أسبوع، ومن وقتها لم يُفارِق يدَه. في البداية، تصبّبَت عبراته همًّا وحزَنًا، ثمّ مع الأيام؛ استحوذ الأمر على تفكيرهُ ليالٍ متتالية، والآن كلّما قرأ كلمات الأوراق؛ ثارت في نفسهِ نزوة الغضب.

أخبره مساعدهُ بطلب «صَلاح» و«خَليفَة» الاجتماع بهِ، وكعادته طوال الأيام الماضيات؛ رفَضَ مُعتذرًا.

لا يجرؤ على اللقاء، لا يُريد أن يأتِ أوانُ المواجهة؛ فيتأكد أنّ كل ما تحمله هذه الأوراق حقيقة، وأن سنوات عمره التي قضاها في تلكَ الصداقة لم تكن إلّا مُجرد خدعة مقيتة! يخشى الألم؛ فيتهرّب من المواجهة.. لكن إلى متى؟!

مرة ثانية عاد المساعد بخبرِ قدوم محامي الشركة، أُذِنَ له، بعدما دخل المحامي مُسلّمًا؛ استقبَلَه «إسماعيل» مُباشرة بسؤالِه:

- ما هي إجراءات فضِّ الشراكة؟

اندهش المُحامي لسؤاله، أجاب مُستفهِمًا:

- مع شريكيكَ الحالييْن؟

- أجل.

- هُناكَ طرُقٌ لجعلِ إنهاء الشراكة سِلميًّا وقابلًا للصلحِ في أي وقت، والـ.....

لكِنّ «إسماعيل» قاطعهُ قائلًا بكلّ ثبات:

- أريد فضًّا نهائيًّا غير قابل للصّلحِ.

***

الطـائـرة، عام ١٩٩٥

طوالَ حديثهِ كانت تتجلّى على سيماء وجهه العداوةُ والبغضاء! حسبتُ أنّ الشباب عرفوها وعلموا أثرها؛ فأدركوها! وأنّ سكوتهم صبرٌ، وأنّ صبرهم فكرٌ، وأنّ فكرهم حذرٌ! لكنّهم وثقوا بكلماتٍ عجاف تدّعي الرحمة، انسلّت من الشفاه وما علق في قلبه منها شيء! وما كان الحكي إلّا عن مغالطةٍ للأفهام والأفئدة، كذا حال النفوس الصدئة إذا ما أرادتْ غير الحقّ دليلًا على إيمانها وعملها، فلا تجد ما تنضحُ به عن نفسها شؤم الأفعال وسوء الأقوال إلّا أن تعمَد إلى واقع من الماضي يفيضُ بالبلاءِ؛ فتحتجّ به على فعلِ ما فعلوا، أو تركِ ما تَركوا، كأنّما هي القانون الذي تركنُ إليه لنيلِ المعذرة بعد الغوصِ في الشهوات والوقوع بالزّلّات!

وثقوا بانْكساره.. للمرة التي لا أذكر عددَها وثقوا بالقاتل!

كذا حالُ الأوطان حين تثق بكرامات الفجّار!

كانت الرصاصةُ موجّهة للنافذة، «سميّة» بقربها، و»عربي» يقف أمامها، تهافت على ذراعها قابضًا عليه يجذبُه إليه؛ لِتميلَ هي يسارًا؛ فيسقط هو يمينًا غير مُدرك لخطورة ما فعل، أو لعلّه يدرك.. لا زلتُ أتبيّن معنى هذا الحبّ!

انقضّ الشّباب على القاتل، لكنّ الرصاصة كانت قد غادرتْ مخبأها ومرّت بضلعِ «عربي» ثمّ استقرّت أخيرًا بزجاجي.. خطّ الدفاع الذي يفصل بين الموت والحياة!

سقطَ الــ «عربي».. كذا سقط الزجاج!

الأرضُ تقترب بسرعة.. سرعة كبيرة جدًّا، أركاني كلّها تتخلخَلُ، أمّا قلبي وما حواه مِن أفئدة فقد استسلموا لقوانين الجاذبية وتكوّمت أجسادُهم أرضًا، بعضُها فوق بعض، آلام بعضها فوق بعض، أرى الظلام! هل الظلام يُرى؟ إذًا ما أراه هو الموت، أقبلت الأرضُ أو أقبلتُ أنا عليها، كلانا التقينا الآن، صمتٌ طويل، لا ليس طويلًا، صمتٌ قصير، لا بل لم يكن هناك أيّ صمت!

كلّ النفوس ساكنة، كل الأجسادِ هامدة، أمّا الدّماء فكثيرٌ منها ينساب بقلبي إلّا واحد.. تنساب روحه مع دمائه لا يفترقان!

الأرض كانت قريبة، وبالرغمِ من ذلك فإنّ السّقوط كان مُهشّماً، أركاني تمزّقت وأضلعي تكسّرت، أمّا قلبي.. فليس لجبرهِ إلّا الله!

أصواتُ صافرات الإنذار تقترب، الأقدامُ تتدافع، الأيدي تبحث بين الأجساد.. هذا حي! هذا ميّت! هذا يموت!!

صاحبةُ الحجاب لم تجدِ الحجابَ بعد! تبحث عن «عربي»، تصرخُ في الأيدي التي تتلقّف هتافَها بالكشف والمعاينة.. «أخي، أين أخي؟»

أجابوها.. «حسنًا، حسنًا.. سنجده»

الأجساد المحطّمة تتحرّك فيها الروح بألمٍ، تستسلمُ للمسةِ الأمان التي تتبع أصوات الأطباء، أتى صوت «سميّة» الصارخ..

«لا لن أقبلَ بالوعد هذه المرّة، سأبحث عنه بنفسي ولن أنتظر»!

بداخل قلبي تعتدل الأنفس جلوسًا وقيامًا، وبعض الأعين تستعيد الرؤية، أرى في القادمين من خارج أركاني طيفًا أعرفه، أحفظ تفاصيله، صوته يقترب...

- لا حول ولا قوة إلّا بالله.. ألا رحمة الله عليهم جميعًا.

هكذا أتى صوته حزينًا واهنًا وأجساد الأموات أول ما استقبلته عيناه، يسأل أحد الأطباء عن جسد صديقه ورفيقه؛ فأشار له على مكان «أبو ليلى»؛ فقفز «أبو عُمر» إليه مُتلهفًا عليه، فلمّا استقرّ عنده عانقه معانقة القبر للجسدِ

أول ليلته، بكى فوق رأسه ونبتت من بين شفتيه أنّات الفراق، أقبل أربعة شباب عليه وبعدما ألقوا السلام تحدّث أصغرهم:

– لقد دعوتنا لأجل بناء مستقبلٍ طيّب لنا ولشركاتك، وقد عانينا في رحلتنا هذه مِن العذاب صنوفًا وألوانًا....

أبعد «أبو عُمر» رأسَ صاحبه عن صدره وهو يُنصت لحديثِ الشاب؛ فخجل الفتى وتلعثم؛ فتلقّف شابٌّ آخر منه العبارات إنقاذًا له، وأكمل كبيرهم:

– وأنا أرى... ونحن نرى أنّ من حقّنا إقامة دعوى على شركتك أو أخذ تعويض مادي مُقابل ما كابدنا حتى حضرنا إلى هنا.

بهدوءٍ شديدٍ أراح «أبو عُمر» جسد «أبو ليلى» أرضًا، ثمّ وقف أمام الفتيةِ وهو ينقلُ نظره بينهم، ومِن خلفهم وقف باقي الشباب بعدما أفاقوا، سألهم:

– مِن مِنكم يشاركهم في الرأي؟

سكتوا جميعهم إلّا واحدًا خرج من بينهم وانضمّ للأربعةِ فصاروا خمسة، نادى «أبو عُمر» على رجلٍ ينتظره بالخارج؛ فلمّا أقبل نظر له باسمًا وقال للشباب:

– هذا أمهرُ محامٍ أعرفه، والله شاهدٌ على كلامي.

تجلّت الدهشة على وجوههم، وازدادت أكثر وأكثر حينما وجدوه يُخاطب المحامي:

- أعطهِم حتى يرضوا.

عاد «أبو عُمر» إلى جسد صاحبه ومدّ يدَه داخل جيبهِ الأيسر، أخرج محفظته؛ ففتحها وما هي إلّا دقيقة حتى ضمّها بقوةٍ وبكى، أحسب أنّ الشفقة والرحمة ما كُتِبَت إلّا على مثل هذا الرجل وأمثاله ممّن فقدوا كلّ غالٍ ولا يملكون إلّا أن يعيشوا على البقيّة الباقية من صحبةِ خيرٍ مضت!

قال واحدٌ من الفئة الراضية، وهو يشير إلى جسدٍ لا زال فاقدَ الوعي:

- هذا هو القاتل ولا ندري من أرسله إلّا أنّه يعمل لدى رجل اسمه «خَليَفة»؟!

بُهِتَ «أبو عُمر» عند سماعهِ الاسم، اختلّت قدمه؛ فمدّ يده يستند إلى ضلعٍ من أضلعي لا زال قائمًا، تدخل المُحامي قائلًا بثقةٍ:

- بإمكاني الضغط عليه حتى يعترف على «خَلِيفة»؛ فنتخلّص من شريهما.

أشار له «أبو عُمر» بالموافقة، مرّت دقيقة حتى استجمع أمره ثُمّ سألهم وهو يُشير للقاتِل:

- ماذا عرفتم عنه أيضًا؟

– ليس أكثر من أنّه يتيم، ويرى أنّ الأيتام هُم سببُ الشرور في العالم!

تنهّد «أبو عُمر» بأسى ثمّ تكلّم فيهم:

– مسكين.. ما تعلّم أن اليُتم مثله مثل النهر، إمّا أن تُدمّر نعمة الله؛ فتتبوّل فيه! أو تحفظ نعمة الله؛ فتتوضأ منه!

تناقلت النظراتُ بين الشبابِ، وكأنّ حديثًا صامتًا ينتقل بين الأعين والأنفس، بالخلفِ قفزت «سميّة» فرحًا بعدما وجدَتهُ! يُنادي باسمها، يستصرخها سماعًا؛ مُتلهفةً تلقّفت يدَه بين يديها ووضعت رأسَه على قدميها، رفع بصرَه حيث هي، تتحدّث عيناه بعباراتٍ من ترجٍّ؛ فتفهمُها هي.. صرخت به:

– لا.. لن أفعل يا «عربي».. ولن تُرغمني.

سعلَ بقوةٍ؛ فاندفعت مِن بين شفتيهِ بعضُ الدماء، همس:

– افعليها مرةً واحدة... كما كنّا بالماضي.

انسلّت عبراتٌ كانت قد كظمتها؛ فهربت مِن مآقيها خلسة، وهي تُنكِرُ عليه برأسها وتهزّها اعتراضًا على طلبه؛ فقبضَ على يديها وشدّد عليها بقوةٍ؛ فبكت! وإنّي أعلم مِن خبيئة قلبها أنّها لا تبكي مِن ألمِ قبضته وقوتها، بل مِن ذهابِ تلك القوة ووهنِ مسكته على يديها! وها هو يطلب منها إعادةَ ذلك اللهو الطفولي الذي كان فيما مضى مزحةً بينهما، أعاد همسَه مُتذللًا:

- أريد أنْ أنام عليها يا «سمية».. كما كنتُ أفعل، قبل أن أفقدكِ ونفسي.

شَهقَت وعيناها تتلكؤ على صفحة وجهه؛ فتطايرت منها الدموع، قبضَت بيديها على صدرها قبضة واحدة؛ فكأنّها تحبس به أحزانَها حبسة واحدة! أخذت نفسًا طويلًا.. ومن بين شفتيها خرجت نغمةٌ من أنينٍ، نغمة ضعيفةٌ هامسة، تتوقف وتسترسل! ثمّ تعود فتتوقّف وتسترسل! مدّت يدَها إلى وجهه فمسحت عنه العبرات.. والنغمةُ الهامسة لا زالت تخرج مِن شفتيها، ثمّ تتوقّف وتسترسل، يدُها ترتفع إلى رأسِه؛ فتمسح على شعراتِه، ولا زالت النغمة.. تتوقف ثمّ تسترسل!

تُنظّم بأناملها خصلاتِه وتُهنْدمها... والنغمة تتوقّف ثمّ تسترسل! بدأ فمُه ينفرج عن ابتسامةٍ واهنة ونظرةِ امتنان تتجلى بعينيهِ.. والنغمة بين شفتيها صارت لحنًا..

(نام) يا «عربي» (نام)..

تلقى بالجنّة حمام!

وما تنسى تزور بالأحلام..

أمّي وأبويا وخالي «سلام».

(نام) يا «عربي» (نام)..

زينة الشباب سبقوا للمنام..

والكلاب على الدار بـــ تعوي..

وما في أمان غير بالأحلام!!

(نام) يا «عربي» (نام)..

تلقى بالجنّة حمام!

وما تنسى تزور بالأحلام..

أمّي وأبويا وخالي «سلام».

(نام) يا عربي (نام)..

وبالجنّة صِيد النّعام!

ولمّا ترجع اصْرُخ فينا..

الجنّة ما بيدخلها نيام!!!

(نام) يا عربي (نام)..

تلقى بالجنة حمام!

وما تنسى تزور بالأحلام ..

أمّي وأبويا وخالي «سلام».

انتهتِ التهويدة، كذا انتهت الروحُ من «عربي» وبقيت رأسُه الفارغة من الحياة مُستندة إلى قدمها، والكلُّ صامت بعدما استرعاهم صوتُ لحنها، صرخت وهي تنادي باسْمه، انتحبت فوقَ رأسِه، أمّا ذلك الحجاب الذي

انسلّ عنها بعد السّقوط فقد أمسكَ به أحدُ الشباب، ثمّ أقبل به عليها، ومدّ يدَه به إليها، وقال:

- حجابُك يا «سمية».

فلم تُجِب! فهزّها من كتفها هزّةً قوية، ثمّ نادى:

- حجابُك يا «سمية».

فلم تُجب! فهزّها مرّة ثانية، ثمّ هتف:

- حجابُك يا «سمية».

فالتفتَت إليه غاضبةً عليه، تحجّرت الكلمات على شفتيها وهي ترى شابًّا يُقبل على أخيها فيرفعُه عن الأرض، ثمّ يحمله معه فَتَيانِ بعيدًا، حاولت منعه فلم تستطع، عادت بنظرها إلى الشاب أمامها فوجدت الواحدَ صار خمسة.. جفلت وهي تعود خطوتيْن إلى الخلفِ، والدماءُ تكاد تهرب من وجهها الذي استحال بياضًا، وقبل أن ينطق لسانُها كلمة حرّك الشابُّ الحجابَ أمامها وقال بقهرٍ:

- توقّفي عن البكاء يا «سمية»، فـــ «عربي» كان ليريدكِ...

لكنّها قاطعته بحزمٍ أكثرَ منه:

- ماذا؟ «عربي» يريدُ ماذا؟ لعلمك.. الموتى لا يريدون شيئًا.

لا أحدٌ منهم يعلم ما أعلمُه من نفسها، وأنّ كلماتها ما هي إلّا خدعة تتظاهر بها أمامهم، فقلبُها يتمزّق حنينًا وشوقًا لذلك الـ «عربي» ولحبّهِ الذي كنتُ لا أزال أتبيّن فقهَه، وإنْ كان الحب بين الأخ وأختهِ كما أدركتُ من قبل أنه كطوق النجاة؛ فإذًا.. «سميّة» الآن تغرق!

مرّت دقيقة حتى أقبلَ عليها شابٌّ منهم للمرة الثانية، ثمّ وضع حجابها على رأسها دون نقاش، وقال بصوتٍ هادئٍ ينبض حزنًا:

- «عربي» لم يمت.. هو هنا، بداخلي، أنا «عربي» يا «سمية».

لا أدري أكان ذلك الفتى هو «المغربي» أم أنّه الشاب «القطري»؟!

أم أنّه الشاب «السعودي»؟ أو «السوداني»؟ لا بل أظنّه....... لا أدري!

كلّهم تشابهوا، تلك الملامحُ على وجوهِهم تماثلت، لعلّي لا أستطيع التفريق بين الوجوه لتشابه الأحزان والآلام عليها؛ فصار الهمّ واحدًا والوجهُ واحدًا!

ألجمتْها العبارة وهي تراهم يتوافدون عليها:

- «عربي» لا يستطيع الموت.. فأنا «عربي».

- شئتِ أم أبيتِ.. أنا «عربي».

- جميعنا «عربي» يا سميّة....

– «والعربي لا يموت!»

هكذا قال «أبو عُمر» مُتدخلًا بالحوار، شخصت الأبصارُ إليه، فأشرق وجهه بابتسامة، وقال:

– كان صديقي على ثقةٍ أن مع انتهاء الرحلة سنعرف مَن سيكمل معنا العمل ومَن لن يفعل، كنّا نتمنّى أنْ يرزقنا الله بقلوبٍ تخشاه، في السرّ وفي العلانية، نفوس لن تتجمل أمامنا ثمّ تطعنّا من خلفنا، قلوب يختارها الله لنا قادرةً على حمل المسئولية معنا، في الحقيقةِ أنا لم أصدق أنّ رحلة من ثلاث ساعات ستكشفُ ما عجزنا عن الوصول إليه في شهور، ولا أظنّه كان يتوقّع ما حدث بالطائرة كذلك، لكنّ الله قدّر الخير فعلًا كما تمنّى صاحبي، وحدث ما حدث.. ليميز الله الخبيثَ من الطيب.

بوجلٍ صرّح أحدُهم:

– سيدي.. لا أنكر أبدًا امتناني لفرصةِ العمل التي قدمتها لنا، لقد دعوتنا لنعمل بشركتك، وإنّي لم أكن أجدُ بالأمر مشكلة قبل اليوم، أمّا الآن وبعد غياب ساعات فقط عن موطني؛ فإني أحنّ إلى ترابه.

– وأنا يا سيدي.. أحنّ لتلك الحديقة التي ذرعتها بيدي تحت بيتي.

– وأنا يا سيدي.. أشتاق لطعمِ الخبز ببلدي....

سكتوا؛ فسأل «أبو عُمر»:

- وماذا ستعملون ببلادكم؟

- لا أدري.. سأبحث من جديد.

- وأنا..

- وأنا..

- على أيّ حالٍ لا أظن أنّ أحدًا منّا يستطيع العودة كما كان من قبل..

- لا نملك غير الاستمرار وتمنّي الأفضل.. وأحيانًا أفضل فعل قد نملكه هو أن نبدأ من جديد..

أخرج «أبو عُمر» من جيبهِ محفظة صاحبه، وهو يتكلّم:

- أتعلمون أنّ «أبو ليلى» لم يفارق يومًا أحبّته؟ هُمْ معه أينما حلّ وارتحل.

أخرجَ الصورة الأولى، مسح عليها ثمّ قبّلها وأكمل باكيًا:

- هذا أنا وهذا صاحبي، على البحر ونحن بالسابعة، أول بناءٍ نبنيه معًا هو ذلك البرج من الرمل، حينها تعاهدنا أن لا نبني أي شيء بعدها إلّا معًا.. رحمة الله عليك يا صاحبي.

أظهر الصورةَ الثانية، ابتسم دقيقةً وهو يمسح عليها، ثمّ وجّهها أمام الجميع، ولم تكنْ إلّا أحرفًا مرسومة بالخطّ العربي لاسْم «ليلى»، قال:

- وهذه «ليلى» لم تكن يومًا أكثرَ من هذا، فقط أحرفٌ على ورقة، لكنّها

أكبر من هذا عنده.. هي ابنته التي يتمنّى لو أنّه رُزق بها، فظلّت حلمَه القريب من قلبه، لعلّ الله يُكرمه بها يومًا ما.

أخرج الصورةَ الثالثة، لمعت عيناه وهو يتفحّصها بشوقٍ بالغٍ، ثمّ وجّهها إلى الشبابِ مُعترفًا:

– وهذا سرّه، وعهدُه الذي بينه وبيني، ولا شاهد عليه إلّا الله.

تنقّلت الأنظار بغير فهْمٍ وهم يرون.. قُبّة رُسمت باللون الأسود، يُحيطها سور، وبأركان الورقة برزت أربعُ مآذن وكأنّها للقمرِ نور! الأسئلة تتطاير وتندفعُ من الألسنة يمنة ويسرة، قبض «أبو عُمر» نفسًا قويًّا، ثمّ تحدّث:

– أردْناكم لتحملوا معنا بعض المسئولية، فإذا ما أتى الوقت الذي نرحل فيه.. حملتم بقيتها.

– لا داعي للألغاز يا سيدي.

– الصّراحة يا ولدي.. هي أننا خدعناكم.

– ماذا تعني؟!!

– الاختبار والعمل والشركة.. كلّهم ليسوا كما تظنون.

أنتم داخل خطّة وضعتُها وصاحبي منذ زمن لهدفٍ واحدٍ فقط!

***

الأرض، عام ٢٠١٧

الوجوه مَرايا النفوس؛ تضيء بضيائها، وتظلم بظلامها، ولا أحسب أن نفسًا قد استنزفت آمالها وعرجت منها أحلامُها قد تُشرق بعد كلّ هذا! لكنّ السّماء حالُها مُختلف؛ فالليلُ يبلغ الآن آخرَ ساعاته، وبعدَ قليل يولدُ الصبح من جديد، ناهيًا تلك العتمةِ الأخيرة والليلة الطويلة، أمّا آثار تلك الساعات على أولئكم الشباب قد أفسدت فيهم، وأحزنت نفوسهم، حتى وكأنّ نبضاتهم لا تحيا دورةً كاملة حتى أشعرُ بها في بطنِ أقدامهم، فهي تنبضُ وتختفي في حنايا الطريق نزولًا!

جالسين على طرفٍ من أطراف القرية، لا تملك أقدامهم الحراك، حتى تلكَ العروس المُتلهّفة إلى زوجها؛ قعدت قعودَ الشّاردين، لم يعدْ يجمعهم كلام! وكأنّهم ملّوا الحديث، كانت تنير طريقَهم فوقي شعلةٌ من حماسٍ، لم أعدْ أرى أثرها ولا نورها، اختفتْ عنهم وابتعدوا عنها!

سأل «فيراري»:

- «How long will we stay here?» (إلى متى سنظل هنا؟)

أجابته «بورش»:

– كما تشاءون.. أمّا أنا فسأذهب للبحثِ عن أخي.

خطّ «كاديلاك» على الرملِ بحزمٍ:

– كلّنا سنبحث عنه.

أثق أنّ الله وضعَ بعقولهم ما يدفعها لإصدارِ القراراتِ، لكنّهم باختيارهم يميلون للقرارِ الخاطئ، فماذا لو استعانوا بأهلهم؟ ألم يكونوا قدْ ضَمنوا حينَها النصر على تلكَ القرية الظالمة!؟ إلّا أن النفوس البشرية قد بُليت بالكبرِ من جملة ما بُليت، فأوقن أنّ قرار استعانتهم بأهلهم؛ سيقلل شأنهم ويُضعِف حُجتهم؛ فاختاروا أن لا يستعينوا إلّا بأنفسهم!!

سألت «رُمّانة»:

– وأنا.. ماذا عنْ زوجي؟ فأنا لا أستطيع التجوّل دونكم، يُمنع مرور أي شخص لا يرتدي تلك الساعات.

قالت «بورش» بإصرار:

– يجب علينا البحث عن أخي أولًا.. فهو مُصاب.

كتبت «مرسيدس»:

– لنذهب معًا إلى مستشفى القرية نسأل عنه.. وبالطريق نطلب من الأمن إطفاء إنذار ساعتك.

وكأنّما أُطلِقت الخيول من حبسها؛ فقد هبّت «بورش» وجذبت يد «مرسيدس» معها وهي تهتف:

– إذًا هيّا بنا.

وصلتا إلى المستشفى يُصاحبهما «فيراري» و»رُمّانة»، وبمجردِ دخولهم؛ علَت أصواتُ الامتعاض والاستياءِ من صوتِ الساعة الصاخب، هتفت «بورش» موضّحة:

– إنّها الساعة.. أطلقت الإنذار بالخطأ، أنا آسفة.

أمّا من حولها، فقد خرجت الهمهمات والحمحمات:

- « «Oh my God! Annoying voice!

- « «She spoke Arabic!

- « «Shame on her.

- « «Where is the security to throw her out?[1]

***

(١) – يا إلهي! صوتٌ مزعج!
– لقد تحدَثَت اللغة العربية!
– عارٌ عليها!
– أين الأمن ليطردوها؟!

سألت «بورش» عن أخيها، ثمّ غادرت مُسرعة المُستشفى كلّها، تبعتها «مرسيدس»، فوجدتها تبكي! يقولون إنّ الآلام تُداوى بالمستشفى لا تُكتسب!

ضمّتها إليها ثمّ قفلتا عائدتينِ إلى باقي الشباب، كتب «كاديلاك»:

– لقد مللتُ هذه القرية.

فأجابه «چجوار» على الرّمل:

– وأنا كذلك.. أنتظرُ ساعة خروجنا منها.

نقش «كاديلاك»:

– أشعر بالخرس!

فخطّ «چجوار»:

– وأنا أشعر كأن لساني ثقيل، وشفتيّ مُلتصقتان!

كتب «كاديلاك»:

– أخبرك سرًّا؟!!

نقش «چجوار»:

– ماذا؟

أجاب «كاديلاك» على الرملِ:

– صوتي وصوتكَ وصوتُ الجميع باللغة العربية؛ يُشعرني بالأمان.. أمّا الآن فيلبسني بعضَ الخوف!

عاد الجميع، فمسح «كاديلاك» بسرعة ذلك السرّ، ونظر إلى «بورش» التي توقفت ساعتها أخيرًا عن الصراخ، وسطّر على الرّمل:

– هل وجدتوه؟

كتبت «بورش» بسخط:

– لا.

هتفت «رُمّانة» باستياء:

– لقد صبرتُ معكم وعليكم كثيرًا جدًّا.. الآن دوركم لتساعدوني.

كتبت «مرسيدس» لها:

– حسنًا، حسنًا.. لا تنزعجي.

نقشت «بورش»:

– إلى مَن نذهب الآن، والرجل صاحب العكّاز هو مدير القرية؟!

أكملت «مرسيدس» على الرّمل:

- ويستحيل أن يساعدنا!

نقش «فيراري»:

- الفتيات ينتظروننا هنا حتى نذهب؛ فنقتفي أثر السيارة التي قابلناها في الطريق، ما رأيكم؟

كتب «چجوار» رادًّا عليه:

- موافق.

كذا خطّ «كاديلاك» موافقتَه على الرّمل هو الآخر، سار الشباب بالقرية كلّها.. لم يتركوا مسلكًا ولا معبرًا حتى نظروا داخله وبحثوا فيه وسألوا المارّين به، لكن لا جديد، مرّ الوقتُ سريعًا حتى وصلوا إلى طريقٍ مُظلم، آخره بناء أشد سوادًا من السماء في الليلة الظلماء! فلمّا اقتربوا منه وجدوا السيارة المقصودة؛ فأرقلوا إليها، بحثوا حولها حتى استوقفتهم أنّة ألم تأتي من إحدى الفتحات، حاولوا الدخول إليها، لكنْ فشلت محاولاتهم كلها!

قفلوا عائدين إلى حيث انتظرت الفتيات، ثمّ ارتحلوا كلّهم إلى مدير القرية يسألوه العوْن، مرّ الوقت طويلًا حتى أذنَ لهم بالدخول، فلمّا وقفوا أمامه، سألت «رُمّانة»:

- أين «حسن»؟

فأجاب سؤالَها بسؤال:

– مَن «حسن»؟

تحدّث «كاديلاك»:

- «Her husband.» (الزوج)

أجاب المديرُ مُستنكرًا:

– ولِمَ تسألني أنا؟

فأجابه «كاديلاك»:

- «Because you are the one who took him.»

(لأنّكَ الشخص الذي أخذه)

تدخلت «بورش» وهي تشير إلى يدِها:

- «I do not want this watch anymore.»

(أنا لا أريد هذه الساعة بعد الآن)

ضحكَ المُدير وهو يتحدّث:

– الأمر ليس اختياريًّا يا آنسة، فإن خلعتِ الساعة لن يُسمح لكِ بالبقاءِ في القرية أبدًا.

فاستنكرت «بورش»:

- «So how did my brother get in?»

(إذًا كيف دخل أخي؟)

اقتربت «رُمّانة» من موضعِ المدير، ثمّ انقضّت عليه صارخة:

– أين زوجي؟ أين زوجي؟

حاول الجميع فكّ يدها عن ملابسِ المدير، أمّا الأخير فقد أسرع للخارج ينادي حراسه؛ ليقبضوا على الجميع.. تحرّكت أقدام الشباب بسرعة إلى الخارج لاهثين خائفين، عند أول فتحةٍ بالطريق؛ عبروها واختفوا عن أعين الحراس!

ظلّوا كذلكَ حتى دخل وقتُ الفجرِ، علا صوت بكاء «بورش»، ضمّتها «مرسيدس» إلى صدرها وهي تهمس لها:

- «We will find him.» (سنجده)

قاموا إلى مخرجِ ماءٍ قريب منهم للوضوء، الشباب أولًا ثمّ الفتيات الثلاث، وقفوا بجانب المبنى الذي وجدوا أمامه السيارة، تفرّقوا كما يفعلوا كلّ مرة، وصلُّوا سنَّةَ الفجر، التقت أنظارهم بينهم وأنفاسهم تخرج من صدورهم تحمل في ذرّاتها ذلًّا، ربّما سقطت فوقي عبرة من جفن أحدهم، وربّما هي السّماء تبكي على تلك الزمرة من المساكين، ثمّ وقبل أن يبدأوا صلاة الفجر.. سأل «فيراري»:

- «Do you trust me?» (هل تثقون بي؟)

فهمس البعض:

- «What?»

فأعاد «فيراري» السؤال:

-« Do you trust me?» (هل تثقون بي؟)

فأجابوا بصوتٍ واحدٍ تقريبًا:

- «Yes، we do.» (نعم.. نثق بكَ)

فاعتدل بوقفتهِ وقرّب أقدامه من بعضها قليلًا، أشارَ لهم بفعل المثلِ، دبّ بقدمه فوقي دبّة وكأنّه يوقظ براكيني فيها، ثمّ وقف بثباتٍ ورفع يدَه بمحاذاة أذنيهِ، وقال بصوتٍ قوي لم يعد يأبه بشئ:

– الـلّه أكـبــــر.

وجدتُ أثر نبضاتهم بأقدامهم وكأنها أجراس حرب؛ ومن خلفهِ رددوها مثله:

– الـلّه أكـبــــر.

وبمجرّدِ أن خرجت من أفواههم وسمعتها ساعاتُهم؛ صرخت! خمس ساعات آلية تصرخ في وقتٍ واحد، وقت الفجر، وقت السكون!

كان الصوتُ عاليًا، قويًّا، مؤلمًا لكلّ مَن سمع، اقتربَ منهم الحرّاس، حاولوا محادثتَهم، إخراجهم من الصلاة، لكنّ الستة ظلّوا على صلاتهم

ثابتين، انتهت الركعةُ الأولى وبدأوا بالثانية، لا يكادون يسمعون الأصوات من حولهم.. فصوت ساعاتِهم أكبر، كذا حال الحقّ والباطل، الحقّ صوتُه ثابت، قوي، راسخ، أمّا الباطل فصوته كالبالون الممتلئ هواءً!

خرج الكثيرُ من الزوّار على صوت صافرات الإنذار من ساعات الشباب، علَت الاعتراضات، ظهر التذمّر في أصواتهم، والغضب في كلماتهم، والسخط على صلاتهم، أخيرًا أقبل المدير، يصحب معه جهازًا يتحكّم في أجهزة الجميع، وقف ينتظر انتهاء الشباب لكنّ الحضور ألحّ عليه باستعمال الجهاز؛ فضغط عليه؛ فانقشع الصراخ!

«رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»

سكتَ الصراخ فجأة كما بدأ فجأة، وكانت تلكَ هي الآية التي يقرأها «فيراري» إمامًا، رزقه الله بحسنِ الصوت ورقّة النبرة؛ فظهر ترتيله للآيةِ يسرق الأنفاس، انتهت الصلاة، همس «كاديلاك»:

– افتقدت سماع ذكر الله يخرجُ من لساني!

فأجابه « چجوار»:

– وأنا كدتُ أنسى ذكر الله يا أخي.. عارٌ عليَّ!

لا زال الحضورُ لم يتفرّق بعد، صرخ المدير بغضبٍ:

- فعلتكم هذه تستحقّون عليها الطرد حالًا.

هتفت «بورش»:

- ليس قبل أن نأخذَ أخي.

- لا أخ لكم عندي!

قبض «كاديلاك» على ملابس المدير، وهمس إليهِ:

- لا أظنّكَ ستحبّ أن يعرف الجميع بأمرِ خطفكَ لزوار القرية، ولا أمر أهل القرية الذين تستعبدهم.

تخبّطت أقدام المدير دون عكّازه وهو يُشير إلى أحدِ حرّاسه؛ فذهب الرجل ثمّ عاد بعد دقيقتين يجرّ مِن خلفه «لامبورجيني» و»حسن»، قفزت «بورش» مُسرعة إليهِ وهاتفةً.. «أخي!»

ضمّها إلى صدره ضمّة قوية، ثمّ مسحَ على شعرها وسألها:

- أنتِ بخير؟

- أنا بخيرٍ ما دمتَ بخير.

تحرّكت أقدامُه تجاه باقي صحبته وسألهم:

- الجميعُ بخير؟

- أجل، كلنا بخير.

أمّا «حسن» فقد مشى تجاه «رُمّانة» التي لم تستطع قدماها أن تخطو خطوة واحدة تجاه حبيبها من هوْل المفاجأة، أقبل عليها يضمّها ويشمّها ويعانقها بقوةٍ وهو يسألها.. «أنتِ بخير يا رُمّانة القلب؟»

بكتْ وهي في صدره وداخل حنايا ذراعه تمازجت تبحث عن السكنِ والأمان، أقبلت «مرسيدس» تجاه «لامبورجيني» ثمّ قالت:

- أردتُ الاعتذارَ منكَ عن آخر نقاشٍ حدث بيننا.

- ولِمَ؟ فقد كنتِ على صواب.

- حقًّا؟!

- أجل، لقد صبرتم عليّ كلكم بما يكفي، ولولا أهميتي عند آبائكم لما أحضرتموني مِن البداية.

اقترب باقي أصحابه؛ فأعْلَا صوته وهو يهتف في مَن حوله:

- لستم عائدون إلى أسرّتكم.. أليس كذلك؟

وقف الجميعُ حائرين؛ فأضاف:

- لا يصحّ النوم الآن؛ فأمامنا الكثيرُ من العمل.

سألته «بورش»:

– أيّ عمل؟!

فهتف بحماسة:

– عملٌ مِن أعمال شركاتنا يا «مريم».

اندهشتْ واندهش أصحابُه من ندائه الاسمَ دونَ مزاح؛ أكمل هو:

– هذه الأرض التي تضمّ بين أسوارها المرحَ والمتعة والغناء والسعادة.. تضمّ كذلك الظلمَ والسرقة والهَوان.

تحرّكت الأقدامُ مِن حولهِ بتخبّطٍ وعلَت الهمهمات، استأنف حديثَه:

– وتلك الطعومُ التي تصلكم وأنتم نائمون في غرفكم.. هي في الحقيقة ثمارُ بذور لم تكن يومًا لكم ولا زُرعت من أجلكم.

انقضّ المدير عليه وهو يجذبُه من ملابسه ليمنعَه من الكلام، لكنّ الأخير كالَ له لكمةً أسقطته أرضًا؛ التفّ تجاه «فيراري» و»كاديلاك» وقال:

– «علي» و»عبد الرحمن».. ارفعاه مِن فضلكما.

تملّكت الدهشةُ منهما دقيقةً حتى استجمعا أفكارَهما؛ فانحنيا يرفعان المدير، وقد وقف حرّاسه دونَ حراك، وكأنّما لا يعنيهم أمرُ مديرهم!

استأنفَ كلماته:

– كنتُ أظنّ أنّ عملنا بشركات آبائنا هو الاستخدام الأمثل لنفوذنا وطاقتنا، لكنّ الحقيقة أنّنا كنّا مُقيدين خلف الشاشات ووراء المكاتب!

أيّها السادة.. أنتم تقفون على أرضٍ قد اغتصبَت مِن أهلها، وتأكلون من طعام قد أُخذ بسيفِ الحياءِ من زرّاعه، وتدفعون مالًا لأجل زرقة السماء ونقاء البحر ونسمة الرياح، وكلّ هذا قد أرسله الله مِن عنده..

فإنْ أنتم أحسنتم وردَدْتم الحق؛ كان اللهُ معكم، وإنْ أنتم أسأتم وتمسّكتم بالباطل؛ فالله معنا!

عاد الزوّار إلى الخلفِ بأقْدامهم، تحسبُ أنهم لا يعنيهم من أمرِ القرية شيئًا، لكن مِن خلفهم خرج الكثيرُ مِن الحراس، من كلّ مكانٍ أحاطوا بالشباب جميعهم، هتفَ «لامبورجيني»:

– لم أكنْ يومًا جنديًّا لكني أستطيع أنْ أكون.. إنما أنتم لم تكونوا يومًا شُجعانًا وأنتم تسرقون وتنهبون كلَّ ما يروق لكم؛ فكيف ترتَدوا اليوم أمامي ثوبَ الأسود!؟

رنّ هاتفٌ يسكنُ راحةَ «لامبورجيني»؛ فأجاب بسرعة، ثوانٍ وخرج صوته متلهفًا ومُستبشرًا:

– ادخلوا الآن لكنْ قلّلوا عددَ السلاح؛ يوجد أطفال.

أنهى الاتصالَ ثمّ التفت بجسدِه عنِ الحرّاس دونَ إبداء أي اهتمامٍ، ووجّه كلماته إلى «چجوار» و«مرسيدس» و«مريم»:

– «عادل» و«هبة» و«مريم».. اذهبوا إلى القرية بصحبة «حسن» ولا تعودوا إلّا بأهلها؛ فاليوم نُعين أهلَ الحقّ على أهل الباطل.

ذهبَ بنظره إلى حيثما كان الحراس؛ فلم يجدْ منهم إلّا اثنين أو ثلاث! فعاد بنظره إلى المُدير المخلوع وقال:

– لن أسمح لكَ بوضعِ عكازكَ فيها بعدَ الآن، فنحن لسنا جنودًا لكنّنا أخوة، والأخ لا يترك أرضَ أخيه للذئاب!

اقتربَ منه «حسن» وهو يضحك هاتفًا:

– مَن أنتَ يا رجل؟ وكيف خدعتني بالسجنِ حتى ظننتكَ أحدَ الشباب الفاسدين المُفسدين؟!

ضحكَ الثاني بقوة وهو يشدّ على يدِ «حسن» ويُجيبه:

– اسْمي «عربي» يا «حسن».. سمّتني به أمّي على اسْم خالي رحمه الله.

– وماذا عن الجنود والأسلحة؟

أظهرَ له «عربي» الهاتف الذي لم يكنْ إلّا مُنبّهًا قد ضبطه الأخيرُ على الرنين ليوهِم الحضور أنْ قد جاءه اتصال! همس «حسن» ضاحكًا:

– الحربُ خدعة.

عانقه «عربي» عناقَ الأخ؛ فبادله «حسن» العناق، سأله الأول:

– الآنَ أخبرني.. قبل أن تُسمَّى «القرية الحديثة» ماذا كان اسمها؟

وضعَ «حسن» يدَه على كتفِ صاحبه، وقرّب فمه من أذنهِ وهمس:

– كان اسمُها «وطن».. هي وكلّ أرضٍ تؤخذ من أصحابها وتُسمى بغيرِ اسمها؛ تبقى دائمًا في قلوب أهلها.. «وطن»!

«أمّا قبلُ»

جلَسَا وقد مسّهُمَا القَلَق، أحدُهما هَتَكَ الخوفُ قَمِيصَ قلبه، والآخر تبدّل صبرُه قلقًا وصمتُه همسًا؛ قال لِصاحِبه وهو يسائله:

– أتدري سببَ اجتِماعنا يا «خَليفَة»؟

زفرَ الأخير بقلقٍ وهو يردّ:

– لا عِلم عِندي.

أقبَلَ حينها «إسماعيل» مُندفِعًا من باب المكتَب وهو يهتف بمساعده:

– أجِّل كل مواعيدي لباقي اليوم من فضلك.

ثمّ أقبَلَ على صاحبيهِ مُسلِّمًا بحفاوةٍ وهو يتكلّم:

– لا داعي لأُطيلَ عليكما يا صديقاي، فقط أردتُ الحديثَ معكما بأمرٍ ما إن سمحتما لي.

حرّكا معًا كتفيهما وابتسما مُرحّبين بالحديث، فلم يجتمعوا منذ مدة، جذب «إسماعيل» كُرسيًّا أمامهما، وجلسَ عليه ثمّ أخرج مِن جيبهِ ورقتينِ، سلّمَ كلٌّ منهما واحدة، وانتظرَ.

نَظَر «صَلاح» إلى الورقةِ بين يديه، وعيناه تأكلان أسطرها سريعًا، وكلّما قرأ؛ كلّما ازدادت حيرته، انتهى.. وقبل أن تخرج أول كلِمة استِفهامٍ من فمهِ، سبقَهُ «خَليفَة» هاتِفًا بغضب:

– ماذا تعني بـ.. «تنازل كامل عن قِسمِ الأزَمات»؟!

نقَلَ «إسماعيل» أنظاره بينهما في صمتٍ، وقد بدا من صاحبيهِ أن قد تسايرت أهواؤهم، نظر إلى السقفِ بضع ثوانِ ثمّ قال:

– أحلُم...

قالها وصمَت؛ فاستحثّه أحد صُحبتِهِ للتكملةِ ولا يزال الغضب يأكل من لحمِ صدرِ الآخر، أكمل «إسماعيل»:

– أحلُم بليلٍ لا بكاءَ فيه.

– ماذا تعني؟

وكأنّما لم يسمعه؛ أضاف:

– وبصباحٍ لا فراق فيه.

– لَم أفهَم!

أكمَل «إسماعيل»:

– وبيومٍ لا حزنَ فيه.

هتفَ «خَليفَة» بغضب:

– أحضرتَنا لتقصّ علينا حلمكَ بيومٍ مِثالي!؟

– وهل غيابُ الألم منه يعني أن اليوم صارَ مثالِيًّا؟!

تدخّل «صَلاح» مُقاطِعًا:

– ما الأمر يا «إسماعيل»؟ أخبِرنا لِنفهَم.

– الأمرُ أني كلّما تمعنتُ في أحوالِنا وجدتُ أن الله يبتلينا؛ ليختبرنا، ليميّز منا صاحبَ الهِمّة وصاحبَ المُهِمّة، أنا فقدتُ زوجتي وابني.. بلاءٌ عظيم، وأنتَ انقطع أملك في الذرية.. ألمٌ عظيم، وأنتَ خسِرتَ معظم مالَك.. امتحانٌ عظيم. الدنيا دارُ محنٍ وبلاء وليستْ للنزهة والرخاء، الله يمتحننا ويعلّمنا ويؤهلنا لخيرٍ، مِنّا من يراه وينجذب له، ومِنّا من لا يرَى إلّا أسفل قدمِه.

قاطَعَهُ «صَلاح» من جديد هاتِفًا:

– قُل ما عِندكَ يا «إسماعيل» إذا سمحت.

– ما عِندي أنَّ..»قِسم حلّ الأزمات» لم يعد يكفي، أنا لم أعد أكفي، حتى وأنتما معي؛ لم نعد نكفي!

الأمر أكبر مَنّا يا صديقاي، الحلّ أكبر من مجردِ أمنية!

- أيُّ أمنية؟

- أمنية العودة، أمنية قالها أهلنا ونخبرها لأولادنا وسيحملها أحفادنا.

- ما زلنا لا نفهّم!

- لِتفهَما إذًا هذا.. أنا لن أنتظرَ ذلك الجيل الذي سيأتي مُستقبلًا ليُصلح كسرًا قديمًا؛ بل سأعمل على نشأة هذا الجيل، لم يعطِني اللّه القلب والفكر والعقل والمالَ لأتمنى، بل أعطاني كلّ هذا ليرى ماذا أفعل بهم.

ساد الصمتُ على الحضور بعض الوقت، تنقلت أنظار الجميع فيما بينهم، همسَ «خَليفَة» همسًا ضعيفًا، طلبَ مِنْه «إسماعيل» أن يُعيد، فأخذ نفَسًا ثمّ قال:

- أخشى أنّ فقْدَ زوجَتكَ وابنك قد أصاب عقلك.

ابتسم «إسماعيل» قائلًا:

- بل آلَمَني وبقوة، فقدتُ على إثْرهما الرغبة في كلّ شيء، لم تعدْ بي قوة للحياة يا «خَليفَة»، لكن تذكّرت أنّ «نُور» يومًا كلّمتني في تعلّقي بقسمِ حلّ الأزمات وأني كنتُ أقضي كلّ وقتي فيه؛ فجادلتني حينها في أني أعتبِره زوجتي الأولى وهي زوجتي الثانية! ولم لا أُبدّل بينهما الترتيب!! ومع طرح سؤالها واجهتُ نفسي لأجدَ أن حبّ مساعدة الناسِ لا يكون إلا أولًا.. حبًّا خالِصًا لا شِركَ فيه.

- إذًا نُساعِدُكَ.. أو نكونُ من الأشرار! هذا هو كلامك؟

- بل أوضّح لكم أنّ لله حكمة في بلائهِ لنا، ولعلّ أهمّه أن نساعد في حملِ همّ الأمة ما دُمنا نطيق هذا.

هنا قال «صَلاح»:

- وماذا لو كنتَ على خطأ؟ وأنّ هذا ليس سببَ بلائنا؟

- إذًا نُغيّر نهْجنا، ونحاول المساعدة بطريقة أخرى.

- وماذا لو أخطأنا في تلكَ الطريقةِ الأخرى؟

أجابَ «إسماعيل» مُتهكّمًا:

- نحنُ بشرٌ يا «صَلاح»، والبشر يميلون أحيانًا للخطأ، لكن يجب أن لا نتوقف.

ردّ «خَليفَة» على تهكّمهِ بتهكّم أشدّ مكرًا:

- ظننتُكَ واثقًا مِن نفسِك ومِن رسالةِ الله لك! فكيف إذًا تتوقع الخطأ.

- لو أرادَنا الله معصومين لخلقنا ملائكةً يا صديقي، وما دُمنا بشرًا إذا لا يجبُ أن نتوقف أبدًا عن المحاولة.

هنالِكَ هَبّ «خَليفَة» من مجلسِه، وألقى الورقة التي أعطاها له «إسماعيل» أول المجلِس، وقال بغضبٍ:

- أنا لا أريدُ أي جزءٍ من هذا الخير يا «إسماعيل»، لا أريد أي علاقة بأفكارِكَ وخططك، أنا فقط أريدُ العمل على شركة المقاولات لتأمين مستقبل زوجتي وولدي.

وقفَ «إسماعيل» بطريقه، والتفتَ تجاه «صَلاح» سائلًا:

- وأنتَ ما موقفك؟

قال «صَلاح» وقد بدا عليه التفكير:

- لا زلتُ أحتاج معرفة تفاصيل أكثر....

قاطعَهُ «خَليفَة» هاتِفًا:

- وأنا لا أحتاج، دعْني أمرّ يا «إسماعيل» لأذهب لعملي.

أمسكَ الأخير كتِفَه بقوة وهو يجذبه معه خارجَ المكتب قائلًا:

- لنتحدّث على انفرادٍ أولًا.

- ماذا تريد؟

أخرَج «إسماعيل» بعضَ الأوراقِ من جيبِه، وسلّمها له وهو يجيبُه:

- جاءني هذا التقريرُ بعد عودتي من فترة الغياب التي عمِلتَ فيها مكاني.

نظَرَ إليها «خَليفَة» بلا مبالاة، ثمّ تغيّر نظره إلى فزع وهو يجِدُ كلّ تلاعبه واستغلاله لـ«قسم حلّ الأزمات» طوالَ غياب «إسماعيل» قد دُوِّن بين يديه؛ انكمشَ كَتِفُه وسقَطت يدُه جانِبه وهو يتلجْلَج بغضبٍ مُدّعٍ:

– كذب! كلّهُ كذِب!

– لا فائدة من الادّعاء يا «خَليفَة»، أردتُ إعطاءكَ فرصةً أخيرة، لكِنكَ أوضحت أيُّ الرجال أنت!

أخرج «إسماعيل» ورقةً أخرى، وقدّمها إلى «خَلِيفَة» قائلًا:

– اقرأها بتمعّنٍ كما تشاء ثمّ وقِّع أسفلَها، ولا تقلق.. قد وضعتُ لكَ مكافأة مالية لله فقط حتى تتدبّر أمرَكَ بعد رحيلِكَ عنّا.

ثُمَّ مدّ لهُ يدهُ بقلمٍ وهو ينظر إلى عينيهِ مباشرة، ولسانُه ينطقُ بتحسّرٍ:

– وهذا فراقٌ بيننا وبينِك.

***

الطـائـرة، عام ١٩٩٥

مالي أرى أعمدةً مِن حديد تقطع في أركاني وأضلعي!! وكأنّ سحابة سوداء تنمو داخلَ قلبي؛ فتُخفيه عنّي قليلًا قليلًا؛ حتى يفوتني حديثُ صاحبي وصوتُ عباراته! أمهِلوني حتى أسمع....

– أحلامنا التي تُزهر فيكم بدأت بتلك الفروع التي أنشأناها لحلّ الأزمات، حتى تفاقمت الأزمات ولم تعد تقتصر على سقوط بناء أو انهيار طريق، وكلّما أصلحنا أمرًا فسد آخر، وكلّما كوينا جرحًا فُتِح آخر، حتى أدركنا أن لا هروب من أصل الدّاء ورأس البلاء، وأنّ أزمة في جسد الأمّة لا يُفيد علاجها إلّا إذا عالجنا أزمة القلب، فهو المضغةُ التي إذا فسدت فسدَ الجسد كلّه وإذا صلحت صلحَ الجسدُ كلّه، ونحن جرحنا أعمقُ من أي جرح قد مرّ عليكم، نحن نسعى لشجر الزيتون وغصون البندق وورقِ النخيل، ومسرى الأنبياء، نحن نسعى لحقٍّ، وكلّ الحقِّ لنا بذلك المسجد وتلك الأرض؛

فبدأنا بوضع الخطّة ودراسة النّهج... فلم نجد غيركم أهلًا له.

– إذًا من جديد.. اليُتم هو سببُ الاختيار!

– لم تفهمني يا بني.. كلّ بيتٍ يعرف مهمّته تجاه أهله وعرضه وزرعه ومائه، أمّا أنتم فلم تجدوا البيت الذي يُنشئكم، ونحن لم نجدِ الذرية التي نُهيئها، كلانا يُكمل بعضه، كلانا يحتاج للآخر.

همهماتُ اعتراضٍ علَت، و»أبو عُمر» لا يطلب منهم شيئًا إلّا الإنصات:

– لمْ نراكم يومًا عضوًا فاسدًا زائدًا.. بل رأيناكم أكثرَ القلوب شفقة وإحسانًا، والقلوبُ مِن حولنا قد كسى أغلبها الصدأ والجفاء حتى اعتادت الأذى كلّ الأذى! فمَن سيقوم للجرح يكويه إنْ لم تكنْ يدٌ قد عرفت ألَمَ

القطع من قبل وتذكرُ سطوة عذابِه، هكذا أنتم.. ابتلاءاتكم جعلتكم أهلًا لهذه الرحمة، كل ما أرَدْناه منكم هو أنْ تُكملوا المسيرة ولا تتوقّفوا، المصاعب كثيرة أمامكم وأمامنا وكلّ منّا يقف وحده أمامها.. لكن معًا؛ سنُحقق الكثير، أنتم لم تعرفوا مِن صغركم ومِمّن حولكم غيرَ هوية العار التي خرجتم منها.. لكننا نعرف أنّ هناك هويّة أكبر تمتلكونها، وهذا ما أردناه منكم، أن تتذكّروا هويَّتكم الأولى والمُشتركة يا ولدي، أنْ تعلموا أنّ عروبتكم هي الأمل الوحيد والباقي لدينا.

أجسادُهم تتباعد، وأنظارُهم تتلاقى، سؤالٌ خرجَ من فمِ صاحبي...

«ما قرارُكم؟»

الرؤية تَضعُف بسرعة، أرى واحدًا منهم يقف.. وآخر.. وآخر..

***

الأرض، عام ٢٠١٧

رنّ الهاتف المُثبّت بالسيارة؛ فمدّ أقربهم يده منه ثُمّ رفعه وأجاب، مرّت دقيقة حتى قال:

- اهدأي يا «سميّة» ابنكِ بخير، ألم نقل لكِ تعالي معنا!

جذبَت واحدة من النّساء الهاتف وهي تُكمِل:

– رفضتِ الاستماع إلى «هتّان» وأصررتِ على المكوث لمتابعة العمل.. ليتكِ قدمتِ معنا يا «سميّة».

مرّت دقيقة أخرة حتى التفّت المرأة المُتحدّثة بوجهها وقالت:

– افتح الحاسوب، «سمية» تقول أنّ هناكَ أخبار مهمّة.

حاوط الآباءُ الخمس والأمهاتُ الثلاث شاشةَ الحاسوب المُتنقّلة بسيارتهم والمُذيع يتحدّث:

– اليوم، وبتاريخ ستة من شهر ديسمبر لعام ألفين وسبعة عشر.. أعلن الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب» اعترافَ بلاده بمدينة القدس المحتلة عاصمةً لدولة الاحتلال الإسرائيلي، ضاربًا بكلّ التحذيرات العربية والغربية عرضَ الحائط؛ وليقضي بذلك على أحلام ملايين الفلسطينيين الذين يتمسّكون بالمدينة المقدّسة عاصمةً لدولتهم التي يأملون بإقامتها!

اقتحمتْ عبرةٌ ساخنة برودةَ الخبر لم تكدْ تتلاشى حينما قدِمَت «مريم» تصحبها «هبة» تكلّمت الأولى:

– لن نعودَ الآن.

سألتها أُمّها:

– أنتم الستّة يا «مريم»! حتى أنتِ يا «هبة»؟

ابتسمتْ «هبة» وهي تضمّ أمّها إليها وتقبّل يدَها قائلة:

– والله يا أمّي هكذا اتّفقنا جميعًا، لن نغادرَ القرية حتى ننتهي من تسليم الأهالي أرضَهم وديارَهم كما ينصّ القانون، أتعلمون.. لقد اكتشفنا أن الرجل صاحب العكّاز يخدعهم في أرضهم!

تدخّلت «مريم»:

– هذه المرّة، سنستخدم مواردَنا للمساعدة بطريقةٍ مختلفة عن كلّ مِن أعمالنا السابقة.

سأل أحدُ الآباء:

– ومناصبكم الجديدة بالشركة يا ابنتي؟

– أظنّنا سنؤجّلها قليلًا.. هذه الفترة سنعمل على حلّ أزمة الأشخاص أنفسهم لا أبنيَتِهم فقط.. أليسَ هذا ما وصّاكم به جدّي «إسماعيل»!

فأجابَها من الخلف صوتٌ:

– أجلْ يا بنتي هو، قال لنا حينَها... « كونوا أكثر إنسانية.. أكثر رحمة»!

سألت «سميّة» على الهاتف:

– و»عربي» هل ما زال يرفض المشاركة؟

أجابتها «هبة» وقد أشرق صوتها:

- إنه قائد المسيرة يا خالة.

اختفى أثر الفتاتان وعاد «هتّان إلى الهاتف سائلًا:

- نتركهم وحدهم!

فأجابته «سميّة»:

- لن نستطيع احتضان يدهم دائمًا، يجب أن نُبقيها فارغة حتى تُساعد غيرهم.

عادت «سميّة» للحديثِ:

- يجب أن نثق بهم كما وثق بنا «أبو عُمر»، هم ربوا فينا الهوية، ونحن أنشأنا بأبنائنا معنى الانتماء.

وأكّد واحد من الآباء:

- آن أوانُ تركهم يا صاحبي.. حتى ينهضوا!

رحلت السيارةُ يصحبها غبارٌ مِن حنين، أرسلتُه في إثرها. اليوم سأصنع كتابًا من أملٍ، وأنصبه في نهرِ الأنين.. وكلّما ترِده أنّة جديدة؛ أرسل لها قبسًا من أملٍ فيطويها داخله حتى تستكين!

***

«أمّا قبلُ»

وقَفَ «إسماعيل» أمامَ قبرِها، وفؤادُه يطير شوقًا إليها، تصرخ أركانه تحنَانًا، وتئنّ دقاتُه حَنَانًا، تحسّس بضعَ ذرات تجاور القبرَ، أخرج فراشته الخشبية الصغيرة من جيبِه، قبّلها ثمّ وضعَها بجوار قبرها، وكأنّما يودِعُ فيها أنفاسه، ويبثُّ بها أحاديثه حتى تصلها.. طالَ بهِ المكوث حتى أتعبَه ظمأ اللّقاء واستحالته؛ فكظمَ شوقَه في ثنايا قلبِه، وانحنى تجاه الأرض ثمّ أسَرَّ بصوتهِ:

– سأنشغل لِبعضِ الوقتِ؛ حتى يتحقق حلمنا الأخضر، سأفتقد حديثنا الهامِس..

«نُور».. اذكِرينِي عندَ رَبّكِ.. وتشفّعي لي بِشجرِ الزّيتون.

عادَ إلى صاحبِه الذي ينتظره بسيّارتِه، سأله «صلاح»:

– إذًا؛ الخطّة هي الأيتام؟!

– أجل الأيتام.. فمَن غيرهم سيُكمّلنا ومَن غيرنا سيكمّلهم!

سكتا طويلًا حتى ابتدره «صَلاح»:

– بلغتَها سلامي قبل رحيلك؟

- لم أفعل؛ فلا زال قلبي عندها.

- هوّن عليكَ يا صاحبي؛ ففي الجنّة اللقاء إن شاء الله، أنتَ وولدكَ وزوجكَ.

زفرَ «إسماعيل» بقوّةٍ وهو يهمس:

- كنتُ سأسمّيه «عُمر».

حمحَمَ الآخرُ باكيًا:

- وأنا كنتُ أنتظر «ليلى»، أتظنّ أن الله قد يرزقني بها في الجنّة إن أنا دخلتُها؟

- بها ما لمْ يخطر على قلب بشرٍ يا «صَلاح»؛ فتمنَّ ما شئتَ.

- نادني «أبا ليلي».. ذكّرني بها حتى ألقاها.

فتبسّمَ «إسماعيل» ضاحكًا من قولهِ، وأرسلت عيناه بضعَ قطراتٍ من حنين، ثمّ قال:

- وأنتَ نادني بمَن سبقني إلى ربّي يا صاحبي.. نادني «أبا عُمر» إلى أن ألحقَ به.

***

الطائرة، عام ١٩٩٥

لم أعد أسمع أي شيء، كذا أظلم كلّ شيء، إذًا هذا هو الموت! لطالما تساءلتُ.. هل تموت الآلات؟! أظنها الآن تفعل!

لكنّ موتي لا يحزنني، فقد أدركتُ الحقيقة...

«لستُ مختلفًا عن البشر»..

أحبُّ مثلهم، أحزنُ مثلهم، أفرحُ مثلهم، أخسرُ مثلهم، أموتُ مثلهم..

الإنسانية إذًا.. معنى يُدرَك لا جسدًا يُترَك!

سألحق بالأرواح التي فارقت أجسادَها بقلبي اليوم، لا أحمل ضغينة، ولا ندمًا؛ فقد حملتُ وشهدتُ أهمَّ حدثٍ بقلبي، لطالما تمنيتُ...

«أن أكون غيمة، وبكلِّ قطرة أُرسِلها؛ تخرج نبتة، وسُقيا، ودعوةُ أمل»

وقبل موتي تحقّقت أُمنيتي.. وحملتُ ماءَ المطر!

***

«أمّا قبلُ» عام ١٩٩١

قلّب «أبو عُمر» فراشته بين يديهِ، تحسّس أجنحتها الخشبية التي اجتمع فيها اللونين.. البرتقالي والأسود، ثمّ سلّمها لصاحبه وهو يقول:

- اسْمُها فراشة «مونارش» تتواجدُ في أمريكا الشمالية، وقدِ انتقلت إلى أستراليا خلال القرن الثامن عشر من خلال رحلتها الطويلة عبر جنوب المحيط الهادئ، وهذا أكثرُ ما يميّزها يا صاحبي حيث أنها تشتهر برحلاتها لمسافات طويلة جدًّا.

- كلّ الفراشات تُهاجر؛ فما المميز في هذه؟!

- في كلّ عام في الأسابيع الأخيرة من فصل الخريف يهاجر الملايين منها إلى جبال سييرا في وسط المكسيك عبر رحلة تصل إلى أربعة آلاف كيلو مترٍ لقضاءِ فصل الشتاء.

تملّكت الحيرة من «أبو ليلى» وهو يستمع إلى صاحبه؛ أكمل «أبو عُمر» بكلّ حماسة:

- بقي سؤالٌ حيّر الكثير من العلماء وبحثوا عن إجابة له، وهو كيف تستطيع فراشة «مونارش» أن تجد طريقها إلى تلك الغابة الصغيرة في المكسيك دون أن تتوه أو تفقد وتنحرفَ عن مسارها؟! وبعد كثير وقتٍ

وجهد وتجربة؛ أيقن العلماءُ أن هذا مبرمَج في جيناتها.

تحدّث «أبو ليلى» بانْبهارٍ:

– سبحان الله! أنا على علم ويقينٍ بقدرة الله جلّ وعلا في كلّ مخلوقاته يا صديقي، لكنّي لازلتُ لا أعلَمُ سرَّ محبتكَ لهذه الفراشة من صغركَ، وكلّ كلماتك الآن وشرحكَ لا تعطيني إجابةً وافية.

– لأنني لا أحبّها فقط، أنا أُقدرها جدًّا، وأحترمُ مثابرتها وجهدها، هجرة «المونارش» تحتاج شهريْن حتى تصل وجْهَتها، وعمرُ الفراشة أسبوعان فقط، وهذا يعني أنّ الفراشة لا تستطيع الوصولَ أبدًا إلى نهاية الطريق!

– لم أفهم.. أنتَ قلتَ إنّ الرحلة تستغرق ستين يومًا؛ فكيف هذا؟!

– لأن فراشة «المونارش» ما هي إلّا وسيلة لتستطيع الأجيال القادمة الوصول، يحدثُ تزاوجٌ بين فَراش «المونارش»؛ فيضع بعضٌ منها نحو أربعمائة بيضة، يقطع الآباء نحو ألف كيلو متر، وتنتهي حياتُها ليكمل عنها الجيلُ الثاني مِن الفراشات الذي يتزاوج ليضعَ مَن يخلفه في هذا الطريق الطويل، ويقطع كذلك نحو ألف كيلو مترٍ أخرى، ثمّ تنتهي حياته ليكملَ عنه الجيل الثالث، ومِن ثمّ الجيل الرابع الذي يصل إلى هدفِه النهائي.

– إذًا يبدأ الآباءُ ليصلَ الأحفاد!

– آهٍ يا صاحبي.. هذه الفراشة حمَلَت همّ الوصول، وضعت على عاتقها

أخذَ الخطوة الأولى، مع العلمِ أنّها لن تستطيعَ الحياة حتى تصل للنهاية، ومع ذلك لم تتوانَ عن التّحليق في سبيل الوصول.. فلِمَ لا نكون مثلَ تلكم.. «المونارش»!؟

مرّ الوقتُ عليهما، جلسَ «أبو ليلى» بعدما فكّرَ بتمعّنٍ، ووصل إلى ما يرتاح إليهِ عاقدًا عليهِ قلبَه عازِمًا على الخوضِ فيه؛ قال بقلقٍ:

– ماذا لو خَسِرنا كلّ شيء، ولم نحقق أيّ شيء!؟

أجاب «أبو عُمر» بيقينٍ:

– أستطيعُ التعايش مع الخسارةِ.. لكِن لا يمكنني أبدًا التعايشَ مع عدم المحاولة؟

– لم أظنّ أنّي يومًا سأكون جزءًا من فكرةٍ كهذه!

– هي فِكرة يا صديقي.. وأيّ نجاح لا يبدأ إلّا بفكرة.

– أملي في الله كبير..

– إذًا لن يضيّعنا.

– اعلم يا صديقي أنّ الأمر لن يقتصرَ على «قسم حلّ الأزمات» فقط، بل...

قاطعه «أبو ليلى» متمّمًا:

– ما دُمنا نتحدّث عن الجُرح الأول والأعمق في نفسِ كلّ مسلم؛ فالأمر لن يقتصر على فرعٍ من فروع شركتنا يا صديقي أبدًا، بل أموالنا وأرواحنا كلّها له فداء.

– ألا تخشى فشلنا؟! أو فشل مَن بعدَنا؟

– وماذا في هذا؟ لنبدأ ويبدأوا مِن جديد، ما داموا على قيدِ الحياة يجب عليهم أن لا يتوقّفوا.....

– ...عنْ ماذا؟

– أن لا يتوقفوا أبدًا عن الاتّحاد.

هُنالِك مَدّ «أبو ليلى» يدَه تجاه «أبو عُمر» مُخاطِبًا:

– لا تتخلّ عنها يا صديقي إن أنا مِتُّ.

– وإن أنا مِتُّ؛ أذكرني وأنت تقفُ على أرضها واكتبْ على درجاتِها....

«رغْمَ أنفِ النسيان.. كانا رَجُليْن ما أخرجَهُما إلّا الشّوقُ».

***

تمّت بحمدِ الله

بهَذا الوقتِ.. حيثُ الحنين..

أراني أَزممُ ماءَ اليقين، وأهتفُ جهرًا مع الخاشِعينَ..

«اللّهم صلاةً بالأقصى»؛ فأهتفُ.. «آمين».

محبوبة محمد سلامة